غلام الدعوة

دروس في حديث الساحر والغلام والراهب

د. هشام صقر



غلام الدعــوة

د هشام صقر

غلام الدعوة

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبد الله ورسوله، اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

من البدهي في عقيدة الإسلام أن الله عز وجل ختم الشرائع كلها بشريعة الإسلام التي أرسل بها رسوله صلى الله عليه وسلم، وختم النبوات به فلا نبي بعده، وأنها عامة للناس أجمعين، ومن البدهي كذلك أنها شريعة خالدة إلى يوم القيامة، محفوظة بحفظ الله لها، وحفظه سبحانه وتعالى بحفظ القرآن الكريم، ذلك الكتاب المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبحفظ السنة المطهرة لكونها الشارحة المبينة، وكذا المؤسسة لكثير من الاحكام (الا إني أوتيت الكتاب ومثله معه) (أبو داود والترمذي وابن ماجه).

ولم يقتصر الحفظ على ذلك، فإن حفظ النصوص وحدها لا يكفي حتى يتمثلها رجال، وحتى يكون لها واقع في حياة الناس، لذا شمل الحفظ النموذج الذي يحيا بهذه النصوص ويحي الناس بها بعد ذلك (.. ولن تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك) (البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه).

وما دام الكتاب والسنة محفوظين إلى يوم القيامة، وما دام النموذج البشري العالم العامل الداعي محفوظا أيضا إلى يوم القيامة، فلا غرو إذن أن تكون تلك النصوص وافية بالحاجة كافية لهذه الطائفة في كل شأن من شؤون التزامها بهذا الدين والدعوة إليه – إما تفصيلا وإما إجمالا في صورة قواعد كلية – علمها من علمها وجهلها من جهلها.

وبقدر فهم النصوص مع الهمة العالية الصادقة تكون الحياة بها، وبقدر الحياة بها وتطبيقها وتنفيذها يكون الإحياء والإخراج من الظلمات إلى النور، فلا نبي بعد محمد ولكن توجد نبوته، فالمنفي هو شخص النبي صلى الله عليه

وسلم أما النبوة فإنها لا زالت قائمة موجودة (من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه) (الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي).
وقد نسب النبي صلى اله عليه وسلم معنى البعثة إلى أصحابه رضوان الله عليهم (إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) (جزء من حديث أخرجه البخاري، ومالك وأحمد).

وبالرغم من أن المكتبة الإسلامية في وقتنا هذا تحوي الكثير والعديد من الكتب والمؤلفات الإسلامية في الفروع المختلفة – القديم منها والحديث – الا أنه من الملاحظ أن عدم التوجيه الدقيق، وضعف المنهجية في الاطلاع، وعدم التشجيع على التعلم المستمر، وقلة الكتابات (نسبيا) التي تربط القديم بالحديث، وتبين كيفية الاستفادة والتطبيق، وكذلك قلة الكتابات التي تؤصل فقه الدعوة والحركة شرعيا من خلال الدراسة المتأنية للنصوص واستخراج بعض كنوزها، كل ذلك وغيره أدى إلى ضعف عام وإهمال غير مقصود للنصوص الشرعية، والتي هي أصل الإسلام والدعوة إلى الله، سواء منها ما يختص بالعبادات أو المعاملات أو الاخلاق أو العقائد أو بصفة خاصة فقه الدعوة والحركة أو فقه الجهاد ... الخ. وهو ما يمكن ملاحظته بوضوح في الساحة الإسلامية من ضعف لدى الشباب في التأصيل الشرعي لمعاني الدعوة والحركة والعمل الإسلامي، فضلا عن الفروع الأخرى المهمة.
إن هناك كتابات كثيرة تربط النصوص بالواقع، وتستخرج فقه الدعوة والحركة من النصوص، إلا أنها تعتبر قليلة بالنسبة إلى مجموع الكتب الإسلامية المطروحة، ولعلي أشير إلى أكبر وأضخم هذه الكتابات وهي تفسير (في ظلال القرآن) للشهيد سيد قطب رحمه الله، والذي يعتبر أكبر وأعمق هذا النوع من التأصيل إلى يومنا هذا في عصرنا الحديث.

إنه لابد أن تكون هناك إسهامات شتى في التنقيب عن كنوز فقه الدعوة في النصوص والسيرة وأقوال السلف (كل حسب قدرته)، حتى نحظى بأصالة فهم وبركة نطق خرج بعد معاناة طويلة، وحتى يجمع الشباب بين الأصولية الشرعية، والواقعية العصرية، فلا ينفصل عن عن الأصول، ولا يعيش غريبا عن واقعه واحتياجاته ووظيفته في علاج هذا الواقع.

ومن النصوص التي كنت ولا زلت أتوقف أمامها طويلا عند قراءتها حديث الساحر والغلام والراهب، والذي كنت أشعر أنه قصة الدعوة، أو حكاية الإيمان على مر الزمان والعصور، وقد كنت أشرح هذا الحديث وأعلق على ما أشار إليه من دروس في الدعوة والإيمان في بعض المساجد، وحيثما واتت الفرصة أو ناسب المقام، وكنت أتوسع في التحليل والتفصيل والمناقشة للأحداث والمواقف التي يحتويها هذا النص النبوي الكريم.

ثم طلب مني بعض الفضلاء أن أكتب وأجمع شتات هذه الدروس لتنشر وتعم فائدتها، فأحجمت في البداية لما يقتضيه هذا الطلب من تفرغ وجهد وعكوف على المراجع، وتتبع للروأيات في مظانها من كتب السنة وتخريجها ... إلخ.
لان الكتابة ليست كالحديث في المسجد، فأعاقني ذلك وغيره مدة تزيد على أربع سنوات لا أمكث فيها على هذا الموضوع إلا قليلا، حتى أذن الله أن يتم، وقد دفعني بعض الإخوة في القيام بهذا العمل، بعضهم بالتشجيع والحث، وبعضهم بالمراجع والمصادر، والبعض بالدعاء، والبعض بالمراجعة والنصيحة، فما يعزب عن واحد قد لا يعزب عن اثنين أو أكثر، حتى خرج هذا الشرح والتعليق على الحديث بفضل الله تعالى.
إلا أن التأخر في إخراج هذا العمل جعلني أسرع الخطى في إنهائه، حتى لا تفتر الهمة وتضعف العزيمة، ولا يعلم ما في غد إلا الله، مما يجعل هناك احتمالا لوقوع سهو أو خطأ أو زلة، فجزى الله خيرا كل من أعان ولو بكلمة طيبة ونصح لله، وعفا عن زلاتنا، فالكمال ليس إلا لله، وكل بني آدم خطاء، ورحم الله من إذا رأى زلة سترها، ولصاحبها أهداها ووقي شرها، ومن إذا رأى حسنة أذاعها ونشرها واستوجب أجرها.

وكان منهجي في التعليق على الحديث ما يلي :

1- أثبت روايات الحديث التي أمكنني الوصول إليها من كتب الحديث وهي ثلاثة: الأولى للإمام مسلم في صحيحه، والثانية للإمام الترمذي في سننه، والثالثة للإمام أحمد في مسنده، ثم شرح الإمام النووي لرواية مسلم.
2- أثبت ما رأيته مهما من شرح الحديث للعلماء الأجلاء – كلا في موضعه – كالإمام النووي في شرحه لحديث مسلم، وابن علان في شرحه

لرياض الصالحين المسمى دليل الفالحين، والشيخ أحمد عبد الرحمن البنا في شرحه لألفاظ المسند في كتابه الفتح الرباني، وغير ذلك.

3- اعتمدت في الشرح على رواية الإمام مسلم فهي مقدمة على غيرها من الروايات عند المحققين من أهل هذا الشأن، ثم ذكرت ما كان من أختلاف أو زيادة في الروأيات الأخرى في كل جزء من المتن منبها على ما يترتب على هذا الاختلاف أو الزيادة في التعليق.

4- ذكرت المعنى اللغوي للمفردات الغريبة مع الاشارة إلى المرجع اللغوي أو الحديثي الذي رجعت إليه، كذلك الأحكام الفقهية والآراء التي وردت في شروح العلماء وذلك في كل جزء من المتن.

5- وقد قمت بتقسيم الشرح والتحليل إلى قسمين بعد كل جزء من المتن: الأول يلي المتن والمفردات مباشرة ويشمل الاستنتاجات والتحليلات المباشرة الظاهرة في النص والتعليق عليها، والثاني تحت عنوان دروس دعوية، ويشمل الاستنتاجات والتحليلات غير المباشرة، والتي يحتملها النص، أو استطرادات وتوسيع لمناقشة المسائل المذكورة في القسم الأول أو التعليق على قضايا هامة ترتبط بالموضوع.

ولذلك فقد يرى القارئ أن بعض التعليقات في القسم الثاني قد توسعت أكثر من المطلوب، أو أن فيها مبالغة في الربط بالنص، وما لهذا قصدت، وإنما كان القصد عدم ترك قضية أثيرت جزئيا دون طرح لبقيتها أو جوانبها ولو في عجالة، ولهذا آثرت هذا التقسيم في الشرح إلى قسمين حتى يتضح الغرض للقارئ، فلا يحمل عليّ في توسع الاستطرادات وتنوعها.

6- أثبت بعد المقدمة النص برواياته الثلاث، ثم شرح الإمام النووي للحديث، ثم الشرح التفصيلي للحديث، وأعقبت ذلك بفصل صغير بعنوان (ولكل وجهة هو موليها) لبيان قضية المهمات وتوزيعها في العمل الإسلامي، ثم ثبت المراجع، ثم فهرس الشرح، ثم فهرس الموضوعات.

وختاما أسأل الله سبحانه وتعالى أن يأجر كل من قدم النصح أو التشجيع أو المعاونة، وأن يجعل ما في هذا الكتاب من العلم الذي ينتفع به، وأن يرزقنا العمل بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يجعلنا من عباده

الصالحين، وأن يرزقنا الفردوس الأعلى من الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مقدمة الطبعة الثانية

باسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على محمد النبي ومن والاه وبعد،
فهذه الطبعة الثانية بها بعض التعديلات، وقد كتبتها وطبعت في بلاد الغربة، التي أسأل الله أن يكتبها لي هجرة في سبيله، وعملا لدين الله في أرضه الواسعة، اللهم آمين.
أسأل الله أن يتقبل هذا العمل ويجعله في ميزاني، وأن ينفع به عباده الصالحين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

متن حديث الساحر والغلام والراهب من صحيح الإمام مسلم:

في باب قصة أصحاب الاخدود والساحر والراهب والغلام ج18\130-132.
حدثنا هداب بن خالد حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلي غلاما أعلمه السحر فبعث إليه غلاما يعلمه فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب فقال إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل فأخذ حجرا فقال اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها ومضى الناس
فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي وكان الغلام يبرئ الاكمه والابرص ويدأوي الناس من سائر الادواء
فسمع جليس للملك كان قد عمي فأتاه بهدأيا كثيرة فقال ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني فقال إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه الله فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك قال ربي قال ولك رب غيري قال ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام

فجيء بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الاكمه والابرص وتفعل وتفعل فقال إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدعا بالمئشار فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه
ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه والا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك قال كفانيهم الله فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه والا فاقذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك قال كفانيهم الله
فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به قال وما هو قال تجمع الناس في صعيد وأحد وتصلبني على جذع ثم خذ سهما من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل باسم الله رب الغلام ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد وأحد وصلبه على جذع ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال باسم الله رب الغلام ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام فأتي الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك قد آمن الناس فأمر بالاخدود في أفواه السكك فخدت وأضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت أمرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أمه اصبري فإنك على الحق.

متن حديث الساحر والغلام والراهب من سنن الترمذي:

باب (77) ج5 \ 437-439 .
عن صهيب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى العصر همس والهمس في قول بعضهم تحرك شفتيه كأنه يتكلم فقيل له إنك يا رسول الله إذا صليت العصر همست قال إن نبيا من الانبياء كان أعجب بأمته فقال من يقوم لهؤلاء فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم وبين أن أسلط عليهم عدوهم فأختاروا النقمة فسلط عليهم الموت فمات منهم في يوم سبعون ألفا قال وكان إذا حدث بهذا الحديث حدث بهذا الحديث الآخر قال كان ملك من الملوك وكان لذلك الملك كاهن يكهن له فقال الكاهن انظروا لي غلاما فهما أو قال فطنا لقنا فأعلمه علمي هذا فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ولا يكون فيكم من يعلمه قال فنظروا له على ما وصف فأمروه أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه فجعل يختلف إليه وكان على طريق الغلام راهب في صومعة قال معمر أحسب أن أصحاب

الصوامع كانوا يومئذ مسلمين قال فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به فلم يزل به حتى أخبره فقال إنما أعبد الله قال فجعل الغلام يمكث عند الراهب ويبطئ عن الكاهن فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام إنه لا يكاد يحضرني فأخبر الغلام الراهب بذلك فقال له الراهب إذا قال لك الكاهن أين كنت فقل عند أهلي وإذا قال لك أهلك أين كنت فأخبرهم أنك كنت عند الكاهن قال فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة فقال بعضهم إن تلك الدابة كانت أسدا قال فأخذ الغلام حجرا فقال اللهم إن كان ما يقول الراهب حقا فأسألك أن أقتلها قال ثم رمى فقتل الدابة فقال الناس من قتلها قالوا الغلام ففزع الناس وقالوا لقد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد قال فسمع به أعمى فقال له إن أنت رددت بصري فلك كذا وكذا قال له لا أريد منك هذا ولكن أرأيت إن رجع إليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك قال نعم قال فدعا الله فرد عليه بصره فآمن الاعمى فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتي بهم فقال لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله وقتل الآخر بقتلة أخرى ثم أمر بالغلام فقال انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه فانطلقوا به إلى ذلك الجبل فلما انتهوا به إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردون حتى لم يبق منهم الا الغلام قال ثم رجع فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقونه فيه فانطلق به إلى البحر فغرق الله الذين كانوا معه وأنجاه فقال الغلام للملك إنك لا تقتلني حتى تصلبني وترميني وتقول إذا رميتني بسم الله رب هذا الغلام قال فأمر به فصلب ثم رماه فقال بسم الله رب هذا الغلام قال فوضع الغلام يده على صدغه حين رمي ثم مات فقال أناس لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد فإنا نؤمن برب هذا الغلام قال فقيل للملك أجزعت أن خالفك ثلاثة فهذا العالم كلهم قد خالفوك قال فخد أخدودا ثم ألقى فيها الحطب والنار ثم جمع الناس فقال من رجع عن دينه تركناه ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار فجعل يلقيهم في تلك الاخدود قال يقول الله تبارك وتعالى فيه قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود حتى بلغ العزيز الحميد قال فأما الغلام فإنه دفن فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب.

متن حديث الساحر والغلام والراهب من مسند الإمام أحمد :

ج20\147 من الفتح الرباني، باب ذكر قصة أصحاب الاخدود وفيها من تكلم في المهد أيضا.

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال الساحر للملك إني قد كبرت سني، وحضر أجلي، فادفع الي غلاما فلأعلمه السحر، فدفع إليه غلاما، فكان يعلمه السحر، وكان

بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه.
فكان إذا أتى الساحر صربه وقال ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا ما حبسك؟ فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل حبسني الساحر، فقال فبينما هو كذلك إذا أتى ذات يوم على دابة فظيعة عظيمة وقد حبست الناس، فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر، فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى لك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس، فرماها فقتلها، ومشى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت اليوم أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ.
فكان الغلام يبرئ الاكمه وسائر الادواء، ويشفيهم، وكان يجلس للملك جليس فعمي، فسمع به، فأتاه بهدأيا كثيرة فقال: اشفني ولك ما ههنا اجمع، فقال: ما أشفي أنا أحدا، إنما يشفي الله عز وجل، فإن أنت آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن به فدعا الله فشفاه.
ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟ فقال ربي، فقال: أنا؟، قال: لا ولكن ربي وربك الله، قال: لك رب غيري؟ قال: نعم، فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني قد بلغ من سحرك أن تبرئ الاكمه والابرص وسائر الادواء، قال: ما أشفي أنا أحدا، ما يشفي غير الله عز وجل، قال: أنا؟ قال: لا، قال أولك رب غيري؟، قال نعم ربي وربك الله، فأخذه أيضا بالعذاب، فلم يزل به حتى دلّ على الراهب، فأتي بالراهب، فقال: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه على الارض.
وقال للغلام ارجع عن دينك فأبى، فبعث به مع نفر غلى جبل كذا وكذا، فقال: إذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه والا فدهدهوه من فوقه، فذهبوا به، فلما علوا الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله عز وجل، فبعثه مع نفر في قرقور فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه والا فغرقوه، فلججوا به البحر، فقال الغلام اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون وجاء الغلام يتلمس، حتى دخل على الملك، فقال ما فعل أصحابك؟ فقال كفانيهم الله عز وجل.
ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتني، والا فإنك لا تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد وأحد، ثم تصلبني على جذع، فتأخذ سهما من كنانتي، ثم قل باسم الله رب الغلام، فأنت إذا فعلت ذلك قتلتني. ففعل ووضع السهم في كبد القوس، ثم رمى فقال باسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس آمنا برب الغلام.

فقيل للملك: أرأيت ما كنت تحذر، فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الاخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، والا فأقحموه فيها.
قال: فكانوا يتعادون فيها، ويتدافعون، فجاءت أمرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: يا أمه اصبري فإنك على الحق.

شرح الإمام النووي :

هذا الحديث فيه إثبات كرامات الأولياء، وفيه جواز الكذب في الحرب ونحوها وفي إنقاذ النفس من الهلاك، سواء نفسه أو نفس غيره ممن له حرمة.
والأكمه : الذي خلق أعمى.
والمئشار : مهموز في رواية الأكثرين، ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء، وروي المنشار بالنون، وهما لغتان صحيحتان.
وذروة الجبل : أعلاه، هي بضم الذال، وكسرها.
ورجف بهم الجبل : أي اضطرب وتحرك حركة شديدة، وحكى القاضي عن بعضهم أنه رواه : فزحف بالزاي والحاء، وهو بمعنى الحركة، لكن الأول هو الصحيح المشهور.
والقرقور : بضم القافين السفينة الصغيرة، وقيل : الكبيرة، واختار القاضي الصغيرة بعد حكايته خلافا كثيرا.
وانكفأت بهم السفينة : أي انقلبت.
والصعيد هنا الأرض البارزة.
وكبد القوس مقبضها عند الرمي .
وقوله : (نزل بك حذرك) أي ما كنت تحذر وتخاف.
والأخدود : هو الشق العظيم في الارض، وجمعه أخاديد.
والسكك : الطرق.
وأفواهها : أبوابها.
وقوله : (من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها) هكذا هو في عامة النسخ : (فأحموه) بهمزة قطع بعدها حاء ساكنة، ونقل القاضي اتفاق النسخ على هذا. ووقع في بعض نسخ بلادنا : (فأقحموه) بالقاف، وهذا ظاهر، ومعناه اطرحوا فيها كرها. ومعنى الرواية الأولى ارموه فيها من قولهم حميت الحديدة وغيرها إذا أدخلتها النار لتحمى.

وقوله : (فتقاعست) أي توقفت ولزمت موضعها، وكرهت الدخول في النار. انتهى كلام النووي.

ترجمة الراوي

أقدم أولا بترجمة مختصرة للراوي الأعلى للحديث وهو الصحابي الجليل صهيب الرومي :
هو الصحابي الجليل صهيب بن سنان بن مالك بن عمرو بن عقيل بن عامر بن حندلة بن جذيمة بن كعب بن أسد بن أسلم بن أوس بن سناه بن النمر بن قاسط ...
أصله من اليمن، وكان أبوه أو عمه عاملا لكسرى على الأبلّه، وكانت منازلهم على دجلة عند الموصل، وقيل على الفرات، فأغارت على بلادهم الروم فأسرته وهو صغير فأقام عندهم حينا، ثم اشترته بنو كلب فحملوه إلى مكة، فابتاعه عبد الله بن جدعان فأعتقه، وأقام بمكة حينا، وقيل إنه هرب من الروم لما كبر وعقل، فقدم إلى مكة، وحالف ابن جدعان، لذا كان يقال له الرومي.

إسلامه

لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسلم، وكان من السابقين للإسلام، قال الواقدي: أسلم هو وعمار في يوم واحد، بعد بضعة وثلاثين رجلا، وكان من المستضعفين بمكة الذين عذبوا في سبيل الله عز وجل.

هجرته

لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم هاجر بعده بعدة أيام، وقدم المدينة مع علي بن أبي طالب في النصف من ربيع الأول، والنبي صلى الله عليه وسلم في قباء لم يرم – أي لم يبرح من مكانه بعد – وقد أورد ابن الجوزي وابن كثير في هجرته أنه لحقه قوم من المشركين يريدون أن يصدوه عن الهجرة، فلما أحس بهم نثر كنانته فوضعها بين يديه وقال: والله لقد علمتم أني من أرماكم، والله لا تصلون إليّ حتى أقتل بكل سهم من هذه رجلا منكم، ثم أقاتلكم بسيفي حتى أقتل، وإن كنتم تريدون المال، فأنا أدلكم على مالي، وهو

مدفون في مكان كذا وكذا، فانصرفوا عنه فأخذوا ماله، فلما قدم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (ربح البيع أبا يحي) وأنزل الله (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد)، وأخرج نحوه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم.

فضله

1- قال ابن علان في ترجمته له في دليل الفالحين عن أنس مرفوعا (السباق أربعة، أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش).

2- **أنه شهد المشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن الجوزي: عن صهيب قال: لم يشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهدا قط الا كنت حاضره، ولم يبايع بيعة الا كنت حاضرها، ولم يسر سارية قط الا كنت حاضرها، ولا غزا غزاة قط أول الزمان وآخره الا كنت فيها عن يمينه أو عن شماله، وما خافوا أمامهم قط الا كنت أمامهم، ولا ما وراءهم الا كنت وراءهم، وما جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين العدو قط حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.**

3- لما ضرب عمر أوصى أن يصلي عليه صهيب، وأن يصلي بالمؤمنين حتى يتفق أهل الشورى على شخص.

4- روى له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثون حديثا.

أخرج له مسلم ثلاثة أحاديث، ولم يخرج له البخاري شيئا.

من صفاته

قال ابن كثير: كان أحمر شديد الحمرة، ليس بالطويل ولا بالقصير، أقرن الحاجبين، كثير الشعر، وكان لسانه فيه عجمة شديدة، وكان مع فضله ودينه فيه دعابة وفكاهة وانشراح.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه يأكل بقثاء رطبا وهو أرمد إحدى العينين فقال: (أتأكل رطبا وأنت أرمد) فقال: إنما آكل من ناحية عيني الصحيحة، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفاته

توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة ثمان وثلاثين، وقيل تسعة وثلاثين، وهو ابن ثلاث وسبعين عاما، وقد ترجم له ابن كثير في البداية في وفيات سنة ثمان وثلاثين وحكى الخلاف.

شرح الحديث

1) (كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر) وفي الترمذي (... وكان لهذا الملك كاهن يكهن له).

1. لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم الزمان أو المكان أو أسماء شخصيات هذه القصة، وذلك أدعى أن تتجرد المعاني، وتصبح مطلقة، لا يقيدها زمان ولا مكان، ليستفيد بالتجربة الدعوية في الأحداث كل مجتمعات البشر إلى قيام الساعة (أصحاب الاخدود).
2. وقد ربط النبي صلى الله عليه وسلم بين هذه التجربة وواقع الدعوة والجماعة في زمانه بقوله (قبلكم) (أصحاب الاخدود)، فكأنه يقول لأصحابه وللمؤمنين من بعدهم: هذه قصة إخوان لكم في الله في زمان قد مضى، وهذه تجربتهم مع الباطل، فتعلموها واعتبروا بما فيها.
3. وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقطع أن نظام الحكم في هذا المجتمع فاسد، لقيامه على الهوى والظلم، فهناك ملك يقوم ملكه على السحر والكهانة والقهر والخداع، والملك الذي يقوم على ذلك لا يفلح أبدا في الدنيا ولا في الآخرة.

فالسحر يخدع الفكر والعقل، ويقلب الحقائق، يستخدمه السحرة في تفسير كل شيء كما يشاء ويهوى الملك، وفي تحويل الشعب إلى الجهل والخرافة ليسهل استخفاف الطاغية به، وتصديق الشعب لألوهيته، كما بين لنا القرآن عن فرعون (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين).

والقهر ظلم وسيطرة على النفوس والابدان، فيصاب الناس بالذعر والخوف، ويستسلموا لإرادة الملك تحت الضغط والعذاب، إن لم ينجح السحر في شل العقل والفكر والحرية، ويظهر بوضوح القهر والظلم في بقية الحديث.

إن أنظمة الحكم التي لا تقوم على شريعة السماء وحكم الله، تقوم حتما على الهوى والظلم، وإن تعددت أشكالها، وإن قننت وصيغت في صياغات قانونية وعلمية خادعة، كما في زماننا الحديث في الاقطار كلها، الإسلامية منها وغير الإسلامية.
وإنه كما قال حافظ ابراهيم:
لقد كان فينا الظلم فوضى فنظمت ... حواشيه حتى صار ظلما منظما.

2) (فلما كبر قال للملك: اني قد كبرت فابعث إليّ غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه). وفي الترمذي: (انظروا لى غلاما فهما، أو قال: فطنا لقنا، فأعلمه علمي هذا، فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم، ولا يكون فيكم من يعلمه).

فلما كبر: بكسر الباء الموحدة، أي كبرت سنه، أما كبر بضم الموحدة ففي القدر (كبرت كلمة تخرج من أفواههم).
فهما: له قدرة عالية علي الفهم، قال في القاموس المحيط: سريع الفهم.
فطنا: من الفطنة وهي الذكاء والحذق.
لقنا: يفهم الكلام والحديث، قال في القاموس: اللقن سرعة الفهم، وألقن حفظه بالعجلة.

1- ويظهر في هذا المقطع حرص الساحر وخوفه من ضياع السحر، وفنه، ومكانته في نظام الحكم، فذكر كبر سنه للملك، وطلب غلاما ليعلمه، حتى تمتد رسالة السحر، ويستمر نفوذه وسلطانه في البلاد، فلا ينقطع بموت الساحر أو الكاهن.
2- وقد طلب الساحر مواصفات خاصه لهذا الغلام من القدرة على الفهم، والفطنة، والذكاء، والاستعداد للتلقي والتعلم، إذ أن كل مهمة لها من يصلح لها، وكلما كانت المهمة أكبر، وأصعب، وأهم، كانت مواصفات المناسب لها أعلى وأدق وأقوى.

3- وقد استجاب الملك لطلب الساحر، فاختير الغلام المناسب، وأرسل إلى الساحر ليتعلم.

دروس دعوية :

1- إن أهل الباطل يضحون من أجل باطلهم، ويبذلون له الكثير، ويخططون له، كما فعل الساحر في هذه القصة، فالشيوعيون يعملون لنشر عقيدتهم الكافرة، ويضحون ويسجنون ويقاتلون من أجل ذلك، والنصارى يعدون من يخرج منهم تاركا أرضه وبلده إلى الأماكن النائية في الصحراء والغابات، ليدعو إلى عقيدتهم الباطلة المحرفة، بطلا، وتبذل الدول النصرانية الأموال والأنفس لنشر النصرانية وحمايتها، أما اليهود فيعملون الليل والنهار، ويتحركون في بقاع الارض كلها للسيطرة على الدنيا علانية وبلا استخفاء، وأين المسلمون من ذلك وهم حملة الحق المبين والقرآن العظيم.

فما بين حكام ظلمة فسقة، أو كفرة مارقين، وما بين عصاة يتمرغون في الآثام، وجهلة يحملون من الدجل والخرافات أكثر مما يحملون من الحق، وآخرون يصلون ويصومون، ولا شأن لهم بعد ذلك بشيء، وآخرون يتكلمون ولا يعملون، وقلة من الدعاة إلى الله قد شغلوا ببعضهم في معارك، بدلا من أن يواجهوا الباطل المحيط المحارب لهم.

إن العمل لهذا الدين، والتضحية لإعلاء كلمة الله، والجهاد ليكون الدين كله لله، فريضة عظمى بدونها يصبح الإسلام بلا دولة، ولا واقع في حياه الناس كما ينبغي، فليفهم المسلمون ذلك وليراجعوا قلوبهم، وحظوظ نفوسهم، وواقع حياتهم، وليفروا إلى الله عاملين مجاهدين متجردين (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين. يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين).

2- إن دور الناشئة والشباب في حمل الدعوات كبير جدا، بل هم عماد الدعوات، ومدادها، فلابد من الاهتمام بهذا المستوى، والتركيز في تربيته، وإعداده لتحمل عبء الرسالة والجهاد، إن الساحر وهو من أهل الباطل أدرك

هذا المعنى، ولم يطلب من الملك كهلا أو شيخا، وإنما طلب غلاما، وذلك لقدرة الشباب والناشئة علي التلقي، والتعلم، وقابليتهم للتربية والتهذيب، ولسهولة تغيير عاداتهم وأفهامهم، وأيضا لطاقتهم العالية وحماستهم الملتهبة المنطلقة، فإذا تعلم الشاب، وتربى، كان أقدر على الانطلاق والعمل الجاد، والإبداع، وإن نظرة إلى زماننا الحديث ترينا عدة نماذج واضحة لهذا الأمر: فاليابان دمرت في الحرب العالمية الثانية، ولكنها اعتمدت على غرس عقيدتها الباطلة في نفوس الناشئة والشباب، ثم علي التدريب والتعليم والابتكار والدأب والجد والتخطيط، فأصبحت النتيجة في أقل من 50 سنة كما نرى اليوم، وكذلك ألمانيا المنهزمة والمقسمة بعد الحرب، أصبحت الآن وخاصه بعد وحدتها، من أقوى دول العالم علميا واقتصاديا، وتعتبر أمريكا مثال واضح لبرامج تربية وتعليم وإعداد الناشئة والشباب، رياضيا وثقافيا ونفسيا، ومثل ذلك الدول الشرقية المتقدمة، ففي روسيا تقوم معسكرات الشباب والناشئة، ومناهج المدارس والجامعات، بالإعداد الدائم للأجيال القادمة ... الخ.

وكذلك فإن هدم الامم والشعوب يبدأ من هدم معتقداتها وإفساد شبابها، وزماننا الحديث مليء أيضا بهذا النوع من الحرب الرخيصة والكيد الخبيث، والأمثلة في الدول المتخلفة عن ركب الأمم المتقدمة، والتي تسمى بالعالم الثالث، خاصة الإسلاميه منها، واضحة لا تحتاج إلى مزيد بيان.

ولقد اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناشئة والشباب:

قال صلى الله عليه وسلم (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع) رواه أبو داود والحاكم وصححه وأحمد والترمذي، وقال أيضا (لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع) رواه الترمذي، وقال (ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن) رواه الترمذي.

بل إن اهتمام الإسلام بالأولاد ليسبق هذه السن، حتى ليبدأ من أول لحظة لهم على هذه الدنيا، ثم لا ينفك عن تعليم وتربية وتلقين حتى يأتيه اليقين.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: روى الحاكم: عن عكرمه حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (افتحوا على صبيانكم أول كلمة بلا إله إلا الله، ولقنوهم عند الموت لا إله إلا الله) تحفة الودود بأحكام المولود.

وقال سفيان الثوري: ينبغي للرجل أن يكره ولده على طلب الحديث، فإنه مسؤول عنه، وقال إن الحديث عِزّ، من أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها.
وقال عبد الله بن عمر: أدب ابنك فإنك مسؤول عنه، ماذا أدبته وماذا علمته، وهو مسؤول عن بره وطواعيته لك.
وتستمر عملية التربية والتعليم حتى لتكون عبادة الولد لله قرة عين والديه، كما بين ذلك المفسرون. قال ابن القيم: قال سعيد بن منصور حدثنا حزام قال سمعت الحسن، وسأله كثير ابن زياد عن قوله تعالى (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين)، قال: يا أبا سعيد ما هذه القرة الأعين، أفي الدنيا أم في الآخرة، قال: لا بل والله في الدنيا قال: وما هي، قال: والله أن يرى العبد من زوجته، من أخيه، من حميمه، طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولدا أو والدا أو حميما أو أخا مطيعا لله عز وجل، (تحفة الودود).

وتستمر عملية التربية والتعليم، فإذا صار غلاما، كان الأمر بها أشد، والاهتمام بشأنها مهما خطيرا، وتأمل حديث (مروا أولادكم) السابق، والانتقال إلى الضرب في سن العاشرة، يريك صواب ما أقول، ثم دقق النظر في كلام ابن قيم الجوزية في هذا الأمر فإنه قال:
فإذا صار بن عشر ازداد قوة وعقلا، واحتمالا للعبادات، فيضرب على ترك الصلاة كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ضرب تأديب وتمرين، وعند بلوغ العشر يتجدد له حال أخرى يقوى فيها تمييزه ومعرفته، ولذلك ذهب كثير من الفقهاء إلى وجوب الإيمان عليه في هذه الحال، وأنه يعاقب على تركه، وهذا اختيار أبي الخطاب وغيره وهو قول قوي جدا، وإن رفع عنه قلم التكليف بالفروع، فإنه قد أعطي آلة معرفة الصانع، والإقرار بتوحيده، وصدق رسله، وتمكن من نظر مثله واستدلاله، كما هو متمكن من فهم العلوم والصنائع، ومصالح دنياه، فلا عذر له في الكفر بالله ورسوله، مع أن أدلة الإيمان بالله ورسوله أظهر من كل علم وصناعة يتعلمها، وقد قال تعالى (وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أي ومن بلغه القرآن، فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه فهو منذر به، والأحاديث التي رويت في امتحان الاطفال والمعتوهين إنما تدل على امتحان من لم يعقل الإسلام،

فهؤلاء يدلون بحجتهم أنهم لم تبلغهم الدعوة، ولم يعقلوا الإسلام، ومن فهم دقائق الصناعات والعلوم لا يمكنه أن يدل على الله بهذه الحجة، وعدم ترتيب الأحكام عليهم في الدنيا قبل البلوغ لا يدل على عدم ترتبها عليهم في الآخرة، وهذا هو القول المحكي عن أبيّ وأصحابه، وهو في غاية القوة، (تحفه الودود).

ذكر الراغب الأصفهاني أن المنصور بعث إلى من في الحبس من بني أمية يقول لهم: ما أشد ما مر بكم في هذا الحبس؟، فقالوا ما فقدنا من تربية أبنائنا، (تربية الأولاد في الإسلام لعلوان).

وقال الأستاذ حسن البنا: إنما تنجح الفكره إذا قوي الإيمان بها، وتوفر الإخلاص في سبيلها، وازدادت الحماسة لها، ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها، وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة، الإيمان والإخلاص والحماسة والعمل، من خصائص الشباب، لأن أساس الإيمان القلب الذكي، وأساس الإخلاص الفؤاد النقي، وأساس الحماسة الشعور القوي، وأساس العمل العزم الفتي، وهذه كلها لا تكون إلا للشباب، (رسالة إلى الشباب).

ثم أختم الكلام على هذه الفقرة في الحديث فأقول: إن دعاة الإسلام هم الفئة القادرة بإذن الله على رد الأمر إلى نصابه، وإنقاذ شباب الأمة من الضياع الذي يراد به، وخطط الترويض التي تعدّ له، وذلك بتركيزهم على الناشئة والشباب، في الأعمار المختلفة، بنين وبنات، وإعداد المناهج التربوية الإسلامية العلمية والعملية المناسبة لكل مرحلة، ثم اختيار النابهين والنابهات منهم، وأصحاب القدرات العالية، لتكون لهم برامج خاصة، ومكثفة، تنمي هذه القدرات وتطورها، وهكذا في جهد متواصل، وتربية مركزة، فيتكون بعد سنوات ليس بالكثيرة بإذن الله جيل مؤمن جاد قوي، قادر على بناء الأمة الإسلامية الرائدة، وما ذلك على الله بعزيز.

3) وقوله : (وكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه)، وفي الترمذي : (وكان على طريق الغلام راهب في صومعة، قال معمر: أحسب أن أصحاب الصوامع يومئذ مسلمين، قال: فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر

به، فلم يزل به حتى أخبره، فقال: إنما أعبد الله، فجعل الغلام يمكث عند الراهب).

و لنا وقفة عند هذا المقطع قليل الكلمات كثير المعاني والعبر:

1- فالذي يتأمل في الكلمات التي هنا، يتبادر سؤال إلى ذهنه: كيف بدأت العلاقة بين الغلام والراهب، ويرد على الذهن احتمالات:

أولها: أن يكون الغلام في أثناء سيره احتاج شيئا ما، أو مساعدة (شربة ماء، طعام، راحة في ظل، .. الخ)، فوجد هذا البيت، أو دله أحد عليه، فقدم الراهب المساعدة للغلام، وأحسن استقباله، وتحدث إليه، فاطمئن الغلام إلى الراهب، ومالت إليه نفسه، وبدأ يجلس معه ويسمع كلامه.

ثانيها: أن يكون الراهب قد شاهد الغلام يمر يوميا من الطريق المجاور لبيته، وربما سأل الناس عن شأنه، وأحواله، وأسرته، فخطط للتعرف على الغلام، وترصده، وتحين الفرصة المناسبة، فلما سنحت له الفرصة استقبله فأحسن استقباله، وجلس معه وحدثه حتى اطمئن إليه الغلام، فقعد إليه وسمع كلامه.

ثالثها: أن يكون الغلام قد استمع إلى بعض الشبهات أو الأقاويل التي يتناقلها الناس عن هذا الراهب الناسك، أو يكون قد حذّر منه لكونه في طريقه، فتعمد الغلام بدافع من الفضول أن يكتشف الأمر، فتعرف على الراهب، فأحسن استقباله، والتعامل معه، والحديث إليه حتى اطمئن إليه الغلام، ومالت إليه نفسه، فقعد إليه وسمع كلامه.

دروس دعوية :

1- يجب على الداعي أن يتلطف مع الناس، وألا يكون فظا أو غليظا (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)، وألا يكون عنيفا معهم فيقطع أي بادرة استجابة وتعاطف منهم، فتكون النتيجة انعزال الداعي عن الناس الذين هم مادة الدعوة، وبعده عن المجتمع المراد التأثير فيه وتغييره ونقله إلى الحق المبين، فيحرم الأخ نفسه من أجر عظيم، بل ويأثم إن رد مقبلا، أو فتنه بسلوكه، أو تقاعس عن واجب الدعوة إلى الله.

2- ويجب على الداعي أن يحسن استغلال الفرص التي تسنح له مع الناس، في أي وقت أو مكان، وفي الحياة اليومية العادية، لبناء علاقة معهم تنمو وتعمق مع الأيام، وتستخدم لصالحهم وصالح الدعوة، بتعليمهم الخير،

ونهيهم عن الشر، ونقلهم من صفوف العصاة إلى صفوف المؤمنين المجتهدين في طاعة الرحمن بإذن الله وفضله وتوفيقه.

3- وعلى الداعي ألا يضيق صدره عند سماع الشبهات والأكاذيب التي تقال عنه، فإن هذه الأقاويل قد تجذب الناس إليه، تعاطفا معه، إذا رأت منه ترفعا وخلقا، وتدفع البعض الآخر إلى الاستفسار عن حقيقه الأمر، وبالتالي فهي تتسبب في الإعلام بوجود دعوة جديدة في المجتمع، ولبيان ذلك إليك هذه المواقف :

قال ابن كثير: قال محمد بن اسحاق: (فلما أسلم أبو بكر، وأظهر إسلامه، دعا إلى الله عز وجل، وكان أبو بكر رجلا مألفا لقومه، محببا، سهلا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر، وكان رجلا تاجرا، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه لغير واحد من الأمر، لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه، ويجلس إليه، فأسلم على يديه فيما بلغني الزبير ابن العوام وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم) (البداية والنهاية).

وقصة إسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم (وذلك أن أبا جهل اعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا، فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه، فذكر ذلك لحمزة ابن عبد المطلب، فأقبل نحوه حتى إذا أقام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة شجّه منه شجة منكرة، وقامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه، وقالوا ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت، قال حمزة: ومن يمنعني وقد استبان لي منه ما أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الذي يقول حق، فوالله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله لقد سببت ابن أخيه سبا قبيحا، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع، فكفوا عما كانوا يتناولون منه) (البداية والنهاية).

4- ومسألة أخرى تتعلق بالاحتمال الثاني، وبأصل مسألة اختيار ذوي المواصفات الخاصة، وكما فعل الساحر حينما طلب غلاما فهما فطنا لقنا ليعلمه السحر، ألا وهي تخير الداعي إلى الله لأصحاب الصفات العالية،

والاستعداد الطيب، والتميز في الشخصية، لدعوتهم وتربيتهم وبناء الأمة المجاهدة الرائدة من أمثالهم، فإن غلاما واحدا بهذه الصفات، كما سيأتي في بقية القصة إلى نهايتها، قد فتح الله عليه فتحا كبيرا لا يستطيعه العشرات ممن هم دونه، إن الأخذ بالأسباب في انتقاء أفضل العناصر، وبذل الجهد في تربيتها، لهو أمر شرعي تدفعنا إليه النصوص الشرعية والمواقف المختلفة للصحابة ومن بعدهم، ومثال ذلك:

ا- قصة طالوت وجالوت في القرآن، ودلالتها العظيمة على وجود التفاوت بين الناس، وأنه لا ينتصر إلا المؤمنون الثابتون المجاهدون وإن كانوا قلة (راجع الظلال).

ب- وتمييز القرآن لفئات من الناس عن فئات أخرى، وتفضيل بعضها على بعض، قال تعالى (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة ...).

ج- وقال تعالى (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجه من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير).

د- قول النبي صلى الله عليه وسلم (الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

ه- وقوله (الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) البخاري.

و- ومن أبرز الدلالات على تفاوت منازل الناس من السيرة النبوية ما كان من أمر المسلمين يوم حنين في أكثر من موقف فيها:

في موقف الفرار الذي كانت صورته كما قال علماء السير (انكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين يقول: أين أيها الناس؟ هلموا اليّ انا رسول الله، انا رسول الله محمد ابن عبد الله، قال فلا شيء، وركبت الإبل بعضها بعضا، في هذا الموقف قال سفيان لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، و صرخ كلده ابن الحنبل وهو مع

أخيه صفوان بن امية ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان اسكت فض الله فاك) البداية والنهاية.
وفي هذا الموقف يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم العباس أن ينادي في الناس، ولكن علي من ينادي، أينادي على الناس جميعا، إنما قال له: يا عباس نادي يا معشر الأنصار يا أصحاب الشجرة، فأجابوه لبيك لبيك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيقذف درعه عن عنقه، ويأخذ سيفه وترسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة) البداية والنهاية.
وظهر التفاوت أيضا في موقف تقسيم الغنائم، حيث أعطى صلى الله عليه وسلم كثيرا من المؤلفة قلوبهم مائة من الإبل، وأعطى غيرهم أقل، ولم يعط الأنصار، ثم بين الحكمة من ذلك حينما قال: (أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام: أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم) البداية والنهاية.

ز- واختيار النبي صلى الله عليه و سلم أبا بكر وعمر وزيرين له، واختياره أسامة قائدا لجيش فيه أبو بكر وعمر رغم صغر سنه، واختياره دحية الكلبي سفيرا له إلى قيصر ملك الروم، وإخبار أبا ذر أنه لا يصلح للإمارة لأنه ضعيف، مع اختياره بعض الصحابة لمهام دون غيرهم (كما في تأميره لقادة مؤتة).
ل- ومن أقوال الصحابة قول عمر رضي الله عنه: يرحم الله أبا بكر كان هو أعلم بالرجال مني، وقوله: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول أنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول أن سالما شديد الحب لله، فقال له رجل أدلك عليه؟ عبد الله بن عمر، فقال قاتلك الله، والله ما أردت الله بهذا، ويحك، كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنهم من أصحاب الجنة) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم، ولست مدخله، ولكن الستة: علي وعثمان ابنا عبد مناف، وعبد الرحمن بن عوف وسعد

خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم، والزبير بن العوام حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، وطلحة الخير بن عبيد الله) تاريخ الطبري.
ثم تأمل قوله رضي الله عنه وهو على فراش الموت ينزل كل رجل منزله، ويصف كل رجل بوصف، فان مت فتشاوروا ثلاثة أيام، وليصلي بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا، ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قدم في الأيام الثلاثة، فأحضروه أمركم، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم، ومن لي بطلحة، فقال سعد: أنا لك به، ولا يخالف إن شاء الله، فقال عمر أرجو ألا يخالف إن شاء الله، وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين: علي أو عثمان، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي ففيه دعابة، وأحرى به أن يحملهم على طريق الحق، وإن تولوا سعدا فأهلها هو، وإلا فليستعن به الوالي، فإني لم أعزله عن خيانة وضعف، ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف، مسدّد رشيد له من الله حافظ، فاسمعوا له) تاريخ الطبراني.

احتراز :

ونحن حين نتحدث عن انتقاء أفضل العناصر لبناء الأمة المجاهدة، فإننا لا نعني إهمال الأنواع الأخرى أو الدرجات الأقل، أو الناس عموما، لأن الاهتمام بالناس جميعا واجب شرعي لا يسعنا تجاوزه، فعلينا أن ندعو الناس جميعا بكل الوسائل المتاحة والممكنة، وأن ننشر هذا الدين ونرفع مستوى الوعي الإسلامي، والوعي العام لدى الناس، ثم علينا أن ننتقي منهم من هم أهل لتحمل مشاق طريق الدعوة الطويل وواجباته.
وقبل أن ننتهي من هذا التعليق، وهذه الاستطرادة، نود أن نبين أننا لا ندعي أنه يمكن لبشر أن يتأكد من نتائج اختياره وانتقائه الأولي، فهو قد يخطئ أو يسيء الاختيار، وهذا وارد لأننا بشر نخطئ ونصيب، كما قد يصيب في اختياره الأولي، ثم بسبب من الداعي، أو لأسباب خارجية، قد يفتن ذو الصفات العالية، ويثبت من هو أقل، فهذا كله بيد الله وحده، لا دخل لنا به، ولا يصلح حجة لمن ينكرون مسألة ضرورة الانتقاء في التربية.
5- إن الدعوة الفردية من أهم وسائل الدعوة إلى الله، وقد مارسها الراهب مع الغلام في حديثنا هذا، ومن أهم مميزات الدعوة الفردية:
ا- أنها تصلح لكل الظروف، الميسرة منها، وظروف التضييق من الأعداء.

ب- أنها توجد صلة عميقة وقوية بين الداعي والمدعو.
ج- أنها ضرورية لجني ثمار الدعوة العامة، حين تسمح الظروف بوجود الدعوة العامة.
د- أنها أفضل من الناحية الأمنية في الحفاظ على أفراد الدعوة.
ه- أنها تكسب الداعي خبرات كبيرة لا تكسبها له الدعوة العامة، مع أهمية الدعوة العامة في إكساب نوع آخر من الخبرات.
و- أنها تمكن الداعي من التقييم الدقيق للمدعو.
ز- أن إنتاجها أكبر أثرا من حيث المستوى، ومن حيث العدد (كالمتوالية العددية).
ل- أنها تمكن من إزالة الشبهات عند المدعو أولا بأول، بخلاف الدعوة العامة.
ونحن نلاحظ أن كثيرا من هذه الميزات جليّ وواضح في علاقة الراهب مع الغلام.

احتراز :

وغني عن الذكر أيضا، أننا لا نعني بذكر أهمية وميزات الدعوة الفردية إهمال أو إلغاء أنواع الدعوة الأخرى كالدعوة العامة، وإنما نعنى إبراز أهمية وجود الدعوة الفردية بمعناها المتكامل (صلة فردية - تربية مركزة – تدرج - عمل هادئ قوي)، وهو ما نحسب أنه قد فعله الراهب مع الغلام، إذ كانا يلتقيان مرتين كل يوم كما دل الحديث.

6- ونلاحظ أن هذه العلاقة لم يدر أحد عنها شيئا، وكان الكتمان هو عنوانها، وهكذا يجب أن تكون العلاقه بين الداعي والمدعو، خاصة في المراحل الأولى، وبصفة أخص حين يكون النظام ضد هذه الدعوة، أو لا يؤمن بها اصلا.

إن النشأة الأولى للمدعو ينبغي أن تكون كالرعاية للنبتة، والحفاظ عليها بشتى السبل، إذ لا تقوي على مواجهة الريح العاتية، والظروف القاسية، فإذا ما اشتد عودها، وأصبحت قادرة على مواجهة الظروف تخففنا من الحيطة الزائدة، وتركناها تؤدي دورها، سرا كان أم علنا، كما سيأتي في فقرة السرية والعلنية كأسلوب في العمل.

7- لم يذكر الراهب دينه للغلام بوضوح وتحديد إلا بعد فترة اطمئن خلالها الراهب إلى قوة علاقة الغلام به، وثقته فيه، وهذا درس مهم، فالمربى

ينبغي ألا يخاطب المدعو إلا بما يناسب حاجته، وقد قيل "ليس كل ما يعلم يقال وليس كل ما يقال حضر وقته وليس كل ما حضر وقته حضر أهله".

8- وتدل جملة (فجعل الغلام يمكث عند الراهب) على الخلطة العالية نتيجه اللقاء المستمر بينهما.

9- ويجب عدم التعجل في دفع المدعو إلى أداء دور دعوى قبل النضوج الكافي والاستعداد المناسب، لأن في هذا خطرا عليه، وعلى الدعوة، في غالب الأحيان، ومن ذلك:

ا- احتمال فتور المدعو عند إخفاقه في تجربة مع مدعو صاحب مشاكل.

ب- احتمال وقوع أخطاء متكررة، فتبرد همته ويفقد الثقة بنفسه، وتفقده الدعوة، أو يفقد جزءا كبيرا من نشاطه وطاقته، ولا يصلح الإقناع العقلي والنظري حينذاك.

ج- احتمال تساهل المدعو عند نجاحه السريع مع فرد مؤهل وصاحب استعداد، فيظن أن الناس جميعا مثل هذا المدعو، فيميل بعد ذلك إلى التساهل الزائد.

د- احتمال الإصرار على الخطأ وزعم صحة عمله وتعصبه لرأيه وذلك لقلة نضوجه وضعف مستواه، فيعاند وتكون النهاية إلى أحد أمرين أحلاهما مر ... إلى آخر ذلك من الاحتمالات المشاهدة عمليا للممارس للعمل التربوي.

ولسنا نقصد بذلك أن تكون التربية نظريا في مدارسات وقراءات فقط، فإن ذلك أبعد ما يكون عما نقصد، فإن التربية الصحيحة يجب أن توازن بين الجوانب الثلاثة الرئيسية في الشخصية: الجانب الروحي والانفعالي، والجانب الثقافي والعلمي، والجانب العملي والتنفيذي، وأي قصور في أي جانب من هذه الجوانب يعني قصورا في الشخصية وتكوينها، ولابد أثناء التربية من تكليفات عملية للمدعو الجديد بتدرج، مع متابعة أداء هذه التكليفات بدقة بواسطة المربي، بل قد يتعمد اختيار السهل اليسير أحيانا، والشاق الصعب أحيانا أخرى، مع متابعة الأداء اليومي، والتوجيه المستمر بدقة وعمق واتزان بين الجوانب الثلاثة.

إن تكليفات المدعو في هذه الفترة هي تدريب تربوي أكثر مما هي نشاط نريد له أن يتحقق، مع عدم تعارض الاثنين في كثير من الأحيان، فلا نتسرع في

توثيق المدعو، وإطلاق العنان له في العمل والاجتهاد والتصدر باسم الجماعة والدعوة بناء على قناعته النظرية، أو حماسته ورغبته العاطفية.
إن الراهب ظل طوال الفترة الأولى من التربية دون دفع أو كشف للغلام، حتى أذن الله بنضوج الغلام، من خلال هذه الآية الربانية الواضحة (آية قتل الدابة)، والتي لا نشترط حدوث مثلها بالطبع، وإنما كل من الفراسة والخبرة والمتابعة تمكن الداعي من تحديد نضوج المدعو وما يصلح له، فيطلقه في العمل بتدرج ومع المتابعة أيضا.

4) قوله: (وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر)، وفي الترمذي (فكان إذا أتي الساحر ضربه وقال ما حبسك، وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا ما حبسك).

1- يجب على المدعو أن يصبر على تلقي العلم، ويصبر على طول التربية، ويجتهد ويأخذ نفسه بالعزائم، ويلزم من تجب عليه ملازمته، كما فعل الغلام مع الراهب، إذ كان يلقاه مرتين يوميا تسببان تأخيره، وقد جاء في الحديث عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيما ناشئ نشأ في طلب العلم والعبادة حتى يكبر وهو على ذلك، كتب الله له أجر سبعين صديقا) أخرجه ابن عبد البر والطبراني.
وقال ابن عبد البر: حدثنا جرير بن حازم قال سمعت يعلى بن حكيم يحدث عن عكرمة عن ابن عباس قال: (لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شاب قلت لشاب من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنتعلم منهم فإنهم كثير، قال: العجب لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفي الارض من ترى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فتركت ذلك وأقبلت على المسألة، وتتبع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإني كنت لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من رسول الله فأجده قائلا، فأتوسد ردائي على بابه تسفي الريح

على وجهي حتى يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله مالك؟ فأقول بلغني حديث عنك أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحببت أن أسمعه منك، قال: فيقول فهلا بعثت إليّ حتى آتيك، فأقول: أنا أحق أن آتيك، فكان الرجل بعد ذلك يراني وقد ذهب أصحاب رسول الله واحتاج الناس إليّ، فيقول كنت أعقل مني) جامع بيان العلم وفضله.
وأخرج ابن عبد البر أيضا بسنده عن مالك أنه كان يقول: (إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر في طلب العلم، حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم، وحتى كان يأكل ما يلقى على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر) جامع بيان العلم.
ثم إنه لابد من استحضار النية وحسن القصد في تعلم العلم، وإلا كان الجهد ضائعا هباء. قال الإمام الغزالي ناصحا تلميذه (أيها الولد كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب، وحرمت على نفسك النوم لا أعلم ما كان الباعث فيه، إن كان نيل عرض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة على الأقران والأمثال، فويل لك ثم ويل لك، وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء، فطوبى لك ثم طوبى لك، ولقد صدق من قال شعرا:
سهر العيون لغير وجهك ضائع .. وبكاؤهن لغير فقدك باطل).
رسالة أيها الولد للغزالي.
وأيضا فإن من يريد أن يتعرف على دعوة أو جماعة، فعليه أن يخالط أهلها ودعاتها ويناقشهم ويستفسر منهم حتى يتبين له وجه الحق، ولا يكفيه أن يستمع إلى منقول الكلام من الغث والسمين، ومن الكذب والصدق، من المتحامل أو الجاهل أو غير ذلك، فإن التحري في معرفة وجه الحق في أي مسألة واجب شرعي على كل واحد من الناس.
2- ونلاحظ في هذه الفقرة شيوع بعض المفاهيم التربوية في المجتمع، رغم ضلاله وكفره، فالساحر يضرب الغلام لتأخره وعدم التزامه بالموعد، وكذلك أهل الغلام، وأيضا في عصرنا الحديث نجد بعضا من السلوكيات والآداب العامة في بلاد الكفر، وقد تعارفوا عليها لصالح مجتمعاتهم وبلادهم، بينما نحن المسلمون بعيدون عن تطبيقاتها، مما يفتن الكثيرين حتى من أبناء المسلمين.

إن على المسلمين عموما، والدعاة من باب أولى، الاهتمام بكل جوانب التربية السلوكية والعملية، واعتبارها جزءا أساسيا وركنا من أركان التربية وبناء الشخصية الإسلامية.

3- وكان ضرب الغلام يمثل نوعا من الامتحان والابتلاء، وكذلك نوعا من الإعداد له، فالمدعو يجب أن يضحي بوقته وجهده وماله لتعلم الدعوة والتربية على مفاهيمها الصحيحة، وكلما كان الجهد المبذول أكبر، كان الصقل أفضل والتربية أعمق.

إنه من واجب الداعي والمربي، بعد أن يكتسب ثقة المدعو، أن يشعره بما يناسب حاله وطبيعته وبتدرج، أن الدعوة غالية يجب بذل الجهد لفهمها، وتحمل العناء من أجل ذلك، وأنه يجب ألا نبخل بشيء من أوقاتنا وإمكاناتنا عما تتطلبه الدعوة، وأن نتحمل في سبيلها الكثير من الآلام والنصب والتعب.

4- يجب على الداعي أن يفرق بين شكوى المعاذير والهروب من التكاليف، وبين شكوى الجاد الحريص على الدعوة والتغلب على العقبات التي تعترض العمل، والفارق بين النوعين لا يميزه إلا داعية فطن مجرب ذو فراسة، والمتابعة الجادة مع الخلطة العالية تعينان الداعية على حسن التقدير والتصرف، وإلا فإنه قد يتهم البريء فيحبطه، أو يعذر من لا عذر له، فيستمرئ ويستمر، فلا يصلح بعدها للدعوة.

5- وبالرغم من معاناة الغلام من ضرب الساحر وأهله بسبب التأخر، فإنه تمكن من إخفاء دينه الجديد الحق وعلاقته بالراهب عن الجميع دون أن ينفلت لسانه بكلمة، أو ينفعل انفعالا يكشف بعض أو كل ما يجري، ولا شك أن ذلك دليل على دقة تربية الراهب له، وحسن استجابة الغلام والتزامه.

إن تعمد إظهار هذه العلاقة قبل الأوان المناسب، الذي يحقق مصلحة الدعوة، يعيق تحقيق ما قد خطط له الراهب، ولا شك أن الراهب قد أمر الغلام بهذا الكتمان، مثلما أكده بعد ذلك في حل مشكلة ضرب الغلام، ثم حين أمره ألا يدل عليه إن ابتلي.

6- ونلاحظ أن الراهب لم يوقف لقاءاته مع الغلام، أو يخففها تقليلا لاحتمالات الأذى، بل عمل على التخلص من ذلك العنت والأذى بشكل آخر لا يؤثر على العلاقة الدعوية التربوية بينهما، فعلى الدعاة ألا يتهاونوا تحت أي ظرف (إيذاء، انشغال بالدعوة، انشغال دنيوي ... الخ) بلقاءاتهم التربوية

أو يهملوها، وإنما يجب عليهم معالجة المشاكل بما يناسبها دون المساس بالزاد اليومي الإيماني والفكري والحركي، للداعي والمدعو.
دروس دعوية :
1- كان الراهب يلتقي بالغلام مرتين يوميا: إحداهما أثناء ذهابه للساحر، والأخرى عند عودته إلى أهله، نحسب أن الأولى منهما كانت لتعليمه أمور دينه، وكانت الثانية لإزالة الشبهات التي قد تعلق في ذهنه بعد لقاء الساحر.
إن هذه اللقاءات تعطينا درسا في أهمية التكثيف والتركيز التربوي والخلطة العالية للوصول إلى المستوى المنشود، كما تعطينا درسا آخر في أهمية الإحاطة بالواقع المحيط بالمدعو وأثره عليه، وعلاج مشكلاته.
2- ودرس رئيسي نتعلمه من هذه الفقرة هو: **ما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الداعي والمدعو**، وهي علاقة ذات شقين:
أولهما المدعو: فهو مطالب دائما بأن يطرح أموره ومشاكله الشخصية، فضلا عن الدعوية، على الداعي المربي، ليتعرف على مختلف الظروف المحيطة به، ويوجهه إلى طريقة حل هذه المشكلات، وليعين الداعي أيضا على المعايشة الكاملة له، واستكمال الرحلة التربوية معه.

ولكي نفهم هذه القضية بوضوح أكثر لنا أن نتصور ما كان سيحدث لو لم يعرف الراهب بالمشكلة:
ا- يرهق الغلام من كثرة الضرب، ويبدأ في الانقطاع المسبب عن لقاءات الراهب والذي قد يلومه بعض الشيء، وهو لا يدري حقيقة الأمر، فتفتر العلاقة بينهما وتضعف، بل وقد تنقطع.
ب- كما يرد احتمال آخر، وهو أن يسيء الغلام التصرف في حل المشكلة، فتؤدي إلى ما هو شر منها، إلى آخر ذلك من الاحتمالات التي يمكن أن ترد على الذهن، وحقيقة نحن لا نقصد المبالغة في تصوير القضية، وأن المدعو إن أخفى شيئا من أموره الشخصية عن الداعي سيفتن ويضيع، وإنما نقصد أن نلفت النظر إلى أهمية هذه العلاقة.
إن البعض يرفضون هذا الفهم للعلاقة بين الداعي والمدعو، ويرون أن العلاقة تكون في أمور الدعوة فقط، ولا دخل للداعي بشئون المدعو الشخصية، فلا مشاركة قريبة، ولا استئذان في الأمور الهامة، والسبب من وجهة نظرهم أن هذا الأمر سيحول الإخوة إلى دمى بلا شخصية، ولا حرية

في التفكير، وإنما تبعية عمياء غير مقبولة، وهذا الرأي لا نوافق عليه من جوانب عدة :
ا- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المربي الأول والقدوة، كان يوجه أصحابه ويربيهم في كل الشئون: الزواج، الطلاق، الفقر، تربية الأولاد، الظهار، بر الوالدين، العبادة الشخصية، العمل، الأخوة، حسن الخلق، الجهاد، التكافل، الدعوة ...... الخ. ومن أمثلة ذلك :
في الزواج : عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني أحببت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد فأتزوجها؟ قال: لا، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم) أبو داود وابن حبان وصححه الحاكم.
وفي الطلاق : نجد أنه صلى الله عليه وسلم يوجه عبد الله بن عمر، فعن ابن عمر (أنه طلق أمرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: مره فليراجعها أو ليطلقها طاهرا أو حاملا) رواه الجماعة إلا البخاري. وفي رواية عنه: أنه طلق امرأة له وهي حائض، فذكر ذلك عمر للنبي صلى الله عليه وسلم، فتغيظ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: (ليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها، فتلك العدة كما أمر الله تعالى)، وفي لفظ (فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء) رواه الجماعة الا الترمذي.

وفي علاج مشكلة الفقر : فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن ياكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) رواه البخاري.
وفي تربية الأولاد : عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع) رواه أبو داود والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وأحمد والترمذي وقال حسن صحيح.
وفي مشكلة الظهار : تذهب خولة بنت ثعلبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو إليه زوجها أوس بن الصامت، وهي تقول: يا رسول الله أكل مالي، وأفنى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي،

ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت عائشة: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الاية (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ...) كتب التفسير ومختصر ابن كثير للصابوني وقال أخرجه ابن أبي حاتم.

وفي بر الوالدين : ورد عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبايعه على الهجرة وترك أبويه يبكيان، فقال: (ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وعن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد الجهاد فقال: (أحي والداك)، قال: نعم، قال: (ففيهما فجاهد) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفي الحث على العبادة : ورد عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل)، قال سالم فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل الا قليلا، رواه البخاري.

وفي الذكر : عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله)، رواه الترمذي.

وفي الأخوة : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين، وظهر ذلك جليا بعد الهجرة بين المهاجرين والأنصار، ومن النماذج الدالة على ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم قال: (تآخوا في الله أخوين أخوين، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال هذا أخي)، وجاء في هذا الشأن أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة فآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فقال له سعد، أي أخي أنا أكثر أهل المدينة مالا فانظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق ... الخ القصة، البداية والنهاية.

وفي معركة اليرموك قال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن وأفر منكم اليوم، ثم نادى: من يبايع على الموت، فبايعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثبتوا جميعا جراحا، وقتل

منهم خلق، منهم ضرار بن الأزور رضي الله عنهم، ولما صرعوا من الجراح استسقوا ماء، فجيء إليهم بشربة ماء، فلما قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر فقال ادفعها إليه، فلما دفعت إليه نظر إليه الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحد إلى واحد حتى ماتوا جميعا، ولم يشرب منهم أحد رضي الله عنهم أجمعين (البداية والنهاية).
وهذا ثمرة توجيه النبي صلى الله عليه وسلم، وإخائه بين المسلمين، ودعوته إلى الإيثار.
وفي حسن الخلق : أرشد السائل وقال: (لا تغضب) وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، رواه البخاري.
وفي التكافل : يوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحث على كفالة اليتيم، وعلى التكافل بين المسلم وأخيه المسلم، والجيران بعضهم مع بعض، وأحاديثها مشهورة في كتب الحديث.
فأولى بنا أن نقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم المربي الأول والقدوة الحسنة.
ب- إننا نؤمن أن الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فوجب علينا أن تكون تربيتنا شاملة كشمول الإسلام، لا تتناول جزءا وتترك آخر بحجة أنه شخصي، أو أنه لا يرتبط بعمل الدعوة.
ج- إننا لا نقصد الالتزام الصارم في المسائل الشخصية، ولكن نرى أهمية إعلام الداعي، من باب الاستشارة على الأقل، ثم يختار المدعو ما يناسبه، إلا أن يرى الداعي خطورة على المدعو تقتضي التنبيه على هذه الخطورة، أو إلزامه برأي معين.
د- إننا لا نقصد الرجوع إلى الداعي في الأمور اليومية المعتادة أو الصغيرة، وإنما في الأمور ذات التأثير المباشر على المدعو، وعلى عمله الدعوي، كالظروف الأسرية المهمة، الزواج، السفر، الشركة مع الغير ... الخ.
ه- إن هذا الرجوع يتحول عند نضوج المدعو نضوجا كافيا إلى استئناس بمشورة أخيه الذي يحبه حبا شديدا، ويثق فيه، مع قدرته على أن يتخذ قراره بنفسه.
و- إن هذا الرجوع ليس مانعا من استشارة آخرين في نفس المشكلة، والأمر يختلف في أهميته وخطورته حسب نضوج الأخ وسعة أفقه، وحساسية المشكلة، وكذلك تجربته الحياتية.

ز- إن الداعي يمكنه أن يرفع مستوى المدعو تربويا بمناقشته بهدوء وعمق، وعدم إلزامه برأيه، وإطلاق حرية التفكير له، وكذلك حرية استشارة الآخرين، فتكون النتيجة سعة في الأفق، وحرية في التفكير واتخاذ القرار، وتعميق الأخوة والاحترام، فليس المقصود بالرجوع إلى الداعي عسكرية الإلزام والعلاقة، بل الاسترشاد، والحب، والثقة، والأخوة، والشورى، والحرية.

ك- إن أغلب الذين يتبنون رد هذا الرباط في الامور الشخصية ينطلقون من معاناة تجارب أسيء فيها استخدام هذه العلاقة، فنشأت تشوهات، وتسببت في أخطاء، كما أن رد فعلها هو هذا النفور والرفض للعلاقة التربوية العميقة الشاملة.

وأنقل لك جملة للإمام الشهيد حسن البنا تفيد كثيرا في هذا المقام، قال رحمه الله (وللقيادة في دعوة الإخوان حق الوالد بالرابطة القلبية، والأستاذ بالافادة العلمية، والشيخ بالتربية الروحية، والقائد بحكم السياسة العامة للدعوة، ودعوتنا تجمع هذه المعاني جميعا) رسالة التعاليم.

إن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نستخير ونستشير في الأمور كلها حتى في النعل، وأولى الناس بالاستشارة هو الموجه المربي، وفي هذا الكفاية، لئلا يطول الاستطراد أكثر من هذا.

وثانيهما الداعي : فهو ينبغي أن يعيش مع المدعو، وأن يستشعر أن هذا المدعو باب عظيم من أبواب الأجر، وأنه رفيق في طريق الجهاد في سبيل الله، فيربيه ويذكره ويعينه ويحل مشكلاته الشخصية والدعوية ما أمكنه ذلك.

على الداعي أن يجتهد **أن يحوز دمعة المتهجد، وحدس السياسي، ولباقة المناظر، ووقار العالم، ورأفة الوالد، وشجاعة المقاتل، وانتباه الفقيه، وأن يترك ما لا بأس به عليه لئلا يقع فيما فيه بأس.**

وقد وصف الإمام الشهيد حسن البنا المجاهد وصفا دقيقا فقال:

(أستطيع أن أتصور المجاهد شخصا قد أعد عدته، وأخذ أهبته، وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحي نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبدا، إن دعي أجاب، وإن نودي لبى، غدوه ورواحه، حديثه وكلامه، جده ولعبه، لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له، ولا يتناول سوى المهمة التي وقف عليها حياته وإرادته، يجاهد في سبيلها،

تقرأ في قسمات وجهه، وترى في بريق عينيه، وتسمع من فلتات لسانه، ما يدلك على ما يضطرم في قلبه من جوى لاصق وألم دفين، وما تفيض به نفسه من عزيمة صادقة، وهمة عالية، وغاية بعيدة).
إن العمل التربوي ليس حلقة تعليمية أو ثقافية تصب فيها المعلومات، أو مجرد أداء لنشاط وحركة بغير قاعدة من الفهم والعلم، وإنما **هو صياغة للنفس الإنسانية وفق مفاهيم وموازين محددة، فهو يشمل الجوانب الروحية، والثقافية، والسلوكية، والأخلاقية، والحركية، والنفسية، ... الخ.**
فلابد من استحضار النية والاستعانة بالله، ثم بذل الجهد والوقت والتفاعل اليومي مع المدعو، والحرص عليه، وتوجيهه، ونصحه، والتدرج معه حتى يفتح الله عليهما وعلى الدعوة بالخير الوفير.
3- ودرس آخر نتعلمه من الحل الذي طرحه الراهب على الغلام من أجل حماية الدعوة والدعاة، وهو درس له علاقة بمسألة درء المفاسد وجلب المصالح، فالساحر قد أمر الغلام بالكذب على كلا الطرفين لينجو من الأذى الواقع عليه فعلا.

وقد علق الإمام النووي على الحديث بقوله (في الحديث جواز الكذب في الحرب ونحوها، وفي إنقاذ النفس من الهلاك، سواء نفسه أو نفس غيره ممن له حرمة) شرح صحيح مسلم.
وعن أم كلثوم بنت عتبة قالت: (لم أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب مما يقول الناس إلا في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.
والحالة التي في حديثنا أعلى مصلحة وأهمية من الإصلاح بين المتخاصمين، وإرضاء الزوجات والأزواج ولا شك، ونحن لا نعني فتح الباب على مصراعيه لكل أحد من الناس للاجتهاد في تقدير الضرورة والمصلحة، فذلك أمر له ضوابطه ويختص به أهل العلم، ولكننا نذكر هذه القضية لأن المشاهد أن بعض العاملين للإسلام لا يكاد يعترف بالضرورة والمصلحة الشرعية، والبعض الآخر يترخص ترخصا جافيا في هذه القضية، متوسعا في الأمر، مدخلا كثيرا من الأمور تحت أحكام الضرورة دون أن تكون منها، والحق أن للمصالح والضرورات أحكام شرعية يجب الالتزام بشروطها وضوابطها

بدون إفراط ولا تفريط، ونذكر هنا باختصار شديد **بعض المعاني حول المصلحة والضرورة :**

المصلحة : هي جلب المنفعة ودفع المضرة، أي المفسدة، فلها جانب إيجابي هو إيجاد المنفعة، وجانب سلبي هو دفع المفسدة، وقد تطلق المصلحة على جانبها الإيجابي فقط، فيقرن معها درء المفاسد كما في قول الفقهاء (دفع المفسدة مقدم على جلب المصلحة) الوجيز لزيدان.

وقال الإمام العز بن عبد السلام: (المصالح ضربان: أحدهما حقيقي وهو الأفراح واللذات، والثاني مجازي وهو أسبابها، وربما كانت أسباب المصالح مفاسد فيؤمر بها أو تباح لا لكونها مفاسد بل لكونها مؤدية إلى المصالح ... وكذلك المفاسد ضربان: أحدهما حقيقي وهو الغموم والآلام، والثاني مجازي وهو أسبابها، وربما كانت أسباب المفاسد مصالح، فنهى الشرع عنها لا لكونها مصالح بل لأدائها إلى المفاسد) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام.

فتأمل هذا الكلام الدقيق واحفظه ثم انتقل معي إلى تقسيم آخر للمصالح.

المصالح ثلاثة أنواع :

1. **المصالح المعتبرة** : وهي جميع المصالح والمقاصد التي وجدت لتحصيلها أحكام شرعية، وقد قسمها الفقهاء إلى ثلاثة أقسام :

ا- **الضروريات** : وهي ما لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، وحفظ الضروريات بما يقيم أركانها، ومجموع الضروريات هي: **حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.**

ب- **الحاجيات** : وهي التي يفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع التضييق المؤدي في الغالب إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراع دخل على المكلفين على الجملة الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغ مبلغ الفساد العام.

ج- **التحسينات (الكماليات)** : ومعناها محاسن العادات ويجمع ذلك قسم مكارم الأخلاق.

وكل مرتبة من هذه المراتب الثلاث تعتبر مكملة لما هو أقوى منها، فالحاجيات مكملة للضروريات والكماليات مكملة للحاجيات، ولاعتبار التكملة في الشريعة شرط وهو ألا تعود مراعاتها بإبطال ما تكمله، لأنه إذا بطل الأصل بطلت التكملة معه، أصول الفقه للخضري.

2. **المصالح الملغية** : وتشمل جميع المصالح التي دل الشارع على أنها مصلحة وهمية، فأورد نصوصا تلغيها وتنهى عنها، كمصلحة المرابي التي ألغيت بنصوص تحريم الربا.
3. **المصالح المرسلة** : هي المصالح التي لم يرد في الشرع ما يدل على أنها معتبرة أو ملغية، بل سكت عنها وسميت مرسلة، لأنه لا دليل يشهد لها بالاعتبار أو الإلغاء، (وقد اختلف العلماء في العمل بها، لكن الحق يقال: المصالح المرسلة – كما يؤكد القرافي وابن دقيق العيد – لا يخلو مذهب منها، ولا فقيه من العمل بها، قويت فيها المناسبة أم ضعفت، يقول القرافي: هي عند التحقيق في جميع المذاهب لأنهم يقومون ويقعدون بالمناسب) ارشاد الفحول للشوكاني.

ومن أمثلة المصالح المرسلة: جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه الناس على مصحف واحد، وإلزام الناس بقراءة واحدة، وتدوين الدواوين، وقتل الجماعة بالواحد إذا اشتركوا في قتله .. الخ.

ويرى الإمام الشاطبي أهمية التحفظ في باب المصالح المرسلة إذ يقول: (إن الاقدام على جلب المصالح صحيح على شرط التحفظ بحسب الاستطاعة من غير حرج) الموافقات.

ووجه آخر من وجوه المصالح يؤخذ بها وإن صادمت نصا أو إجماعا، إذ يكون تحصيلها من باب الضرورة (أصول الفقه للخضري)، أي أنه تكون هناك مصلحتان متصادمتان، مصلحة تطبيق حكم شرعي، ومصلحة عدم تطبيقه عند نشوء ضرر من تطبيقه، أو عند تصادم أصلين من الاصول الخمسة المذكورة في الضروريات، وهنا يجب الأخذ بأخف الضررين وأعلى المصلحتين، وقد جرت أحكام الشريعة على ذلك مثل: إباحة أكل الميتة عند الضرورة خشية الهلاك، وإباحة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه مع اطمئنان القلب بالإيمان.

وقد ذكر الإمام الغزالي هذا الأمر فقال: إذا تعارض شران أو ضرران فقصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين (المستصفى).

وقال الإمام ابن قيم الجوزية: مبنى الشريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح

الدنيا والدين على هذين الأصلين، وقال أيضا: الشريعة لا تعطل المصلحة الراجحة لأجل المرجوحة (زاد المعاد).
وقد تعرض الإمام سلطان العلماء العز لموضوع اجتماع المصالح مع المفاسد في قواعده، وضرب بضعا وستين مثالا لترجيح المصالح على المفاسد، ومما قال (المثال الرابع والأربعون: الكذب مفسدة محرمة إلا أن يكون فيه جلب مصلحة أو درء مفسدة، فيجوز تارة ويجب أخرى وله أمثلة:
أحدهم: أن يكذب لزوجته لإصلاحها وحسن عشرتها فيجوز، لأن قبح الكذب الذي لا يضر ولا ينفع يسير، فإذا تضمن مصلحة تربى على قبحه أبيح الإقدام عليه تحصيلا لتلك المصلحة، وكذلك الكذب للإصلاح بين الناس وهو أولى بالجواز لعموم مصلحته.
الثاني: أن يختبئ عنده معصوم – أي معصوم الدم – من ظالم يريد قطع يده، فيسأله عنه فيقول ما رأيته، فهذا الكذب أفضل من الصدق، لوجوبه من جهة أن مصلحة حفظ العضو أعظم مصلحة من الصدق الذي لا يضر ولا ينفع، فما الظن بالصدق الضار، وأولى من ذلك إذا اختبأ عنده معصوم ممن يريد قتله.
الثالث: الظالم القاصد لأخذ الوديعة من المستودع عنده الوديعة، فيجب عليه إنكارها، لأن حفظ الودائع واجب، وإنكارها ههنا حفظ لها، ولو أخبره بها لضمنها، وإنكارها إحسان.
الرابع: أن تختبئ عنده امرأة أو غلام يقصدان بالفاحشة، فيسأله القاصد عنهما، فيجب عليه أن ينكرهما.
الخامس: أن يكره على الشرك الذي هو أقبح الكذب، أو على نوع من أنواع الكفر، فيجوز أن يتلفظ حفظا لنفسه، لأن مفسدة لفظ الشرك من غير اعتقاده دون مفسدة فوات الارواح.
والتحقيق في هذه الصور وأمثالها:
أن الكذب يصير مأذونا فيه ويثاب على المصلحة التي تضمنها على قدر رتبة تلك المصلحة من الوجوب في حفظ الاموال، والأبضاع، والأرواح، ولو صدق في هذه المواطن لأثم إثم المتسبب إلى تحقيق هذه المفاسد، وتتفاوت الرتب له، ثم التسبب إلى المفاسد بتفاوت رتب تلك المفاسد (قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام).

وفي الإحياء: قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل دارا فانتهى إليك فقال: أرأيت فلانا؟ ما كنت قائلا؟ ألست تقول لم أره، وما تصدق به، وهذا كذب واجب. ثم قال الإمام **الغزالي**: فنقول الكلام وسيلة إلى المقاصد، **فكل مقصود محمود يمكن الوصول إليه بالصدق والكذب جميعا فالكذب فيه حرام، وإن امكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا، وواجب إن كان المقصود واجبا، كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فهنا كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب، ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين إلا بالكذب فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة، فيكون الكذب حراما في الأصل إلا لضرورة** (إحياء علوم الدين).
ثم ساق الإمام الغزالي حديثا نحو حديث أم كلثوم بنت عتبة السابق وفيه الترخيص في الكذب في ثلاثة أشياء ثم قال: (فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره، أما ماله: فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك، فيقول ما زنيت وما سرقت، وقال صلى الله عليه وسلم (من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله) رواه الحاكم وإسناده حسن، وذلك أن إظهار الفاحشة أخزى، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلما، وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا، وأما عرض غيره، فبأن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره..، (الاحياء).
وقال: قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب، قال رضي الله عنه: أما في المعاريض مندوحة للرجل عن الكذب، وروي ذلك عن ابن عباس وغيره، وإنما أرادوا إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، **فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا**، ولكن التعريض أهون (الإحياء).

وأختتم الكلام في هذه المسألة الخطيرة الدقيقة بما ذكره د عبد الكريم زيدان في بحوثه المجموعة، في بحث الضرورة في الشريعة الإسلامية تحت عنوان: جواز الكذب والحلف عليه للضرورة، قال:
ومن هذا القبيل أيضا ما رواه الإمام القرطبي في تفسيره عن فقهاء التابعين من جواز الكذب والحلف عليه لتخليص نفس الحالف، أو ماله، أو نفس الغير، أو ماله، من اعتداء المعتدين أو بغي الباغين، وهذه النقول تكون سوابق فقهية دقيقة ومهمة، تكشف عن جانب دقيق من جوانب الفقه الإسلامي العظيم في مواجهته واقع الحياة، وكيف أنه يراعي جانب النيات، ومآلات الأفعال، فمن نقول الإمام القرطبي ما قاله عن الحسن البصري أنه رحمه الله سئل فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدل على رجل ليبطش به ظلما، أو مال رجل ليأخذه غصبا، **فأجاب الحسن: إذا خاف عليه أو على ماله فليحلف ولا يكفر يمينه.**

وذكر عبد الملك بن حبيب من فقهاء المالكية قال: حدثني معبد عن المسيب بن شريك عن أبي شيبة قال: سألت **أنس بن مالك** عن الرجل يؤخذ بالرجل، هل ترى أن يحلف ليقيه بيمينه، قال: نعم، **لأن أحلف سبعين يمينا وأحنث أحب إليّ من أدل على مسلم،** وقد استحلف الوليد بن عبد الملك رجاء بن حيوة وهو فقيه تابعي، ليخبره عمن تكلم عليه بالسوء في مجلسه، وقد حصل هذا فعلا ووصل خبره بذلك إلى الوليد من عيونه، فحلف رجاء بن حيوة أنه لم يحدث شيء من ذلك في مجلسه، فضرب الوليد جاسوسه الذي جاءه بالخبر سبعين سوطا، فكان المضروب يلقى رجاء فيقول: يا رجاء بك يستسقى المطر وسبعون سوطا في ظهري، فيقول رجاء: سبعون سوطا في ظهرك خير من أن يقتل مسلم (مجموعة بحوث فقهية لزيدان).
على أنه يلزم أن ننبه ثانية وثالثة ورابعة، إلى أن الكذب خارج الحالات المسموح بها شرعا يعتبر من الكبائر، كما صنفه الحافظ الذهبي الدمشقي وغيره في الكبائر (الكبائر للذهبي)، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمن لا يكون كذابا بحال لكنه قد يكون جبانا أو بخيلا (أخرجه مالك في الموطأ).
ويهمنا أيضا أن يفهم الشباب العامل للإسلام أن للأمر ضوابط شرعية علينا أن نتبعها، فلا نفرط ونفوت مصالح ضخمة، ولا نفرط ونترخص فتختل

خطواتنا نحو إرضاء الله عز وجل، فإن كلا الأمرين يغضب الله، والله أعلم.

5) قوله: (فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضي الناس).
وعند الترمذي: (قال الناس من قتلها؟ قالوا الغلام، ففزع الناس وقالوا لقد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد).

1- وبينما تسير العلاقة بين الراهب والغلام بانتظام واستمرار وعمق، إذا بمشكلة الدابة التي حبست الناس تكون حدثا رئيسيا، ونقلة كبيرة، في مرحلية الدعوة، ودور الغلام.
ووقفة عند العبارة التي قالها الغلام: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، هل تعني أن الغلام كان مترددا في عقيدته في صحة كلام الراهب وفساد اعتقاد الساحر، أم أنها كانت طلبا لحق اليقين ليحصل الاطمئنان التام، الواضح أنها كانت طلبا لتمام اليقين، مثلما سأل إبراهيم عليه السلام ربه حين قال (رب أرني كيف تحي الموتى)، فقال له ربه (أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)، ومما يؤكد ذلك ما يلي:
ا- استمرار الغلام في علاقته بالراهب، بالرغم من فهم الغلام لخطورة ما يدعو إليه الراهب من دين جديد يخالف دين الملك، وبالتالي تكتمه لهذه العلاقة، ولو كان شاكا أو مترددا لأوقف العلاقة، ولكفى نفسه مؤونة الجلوس المتكرر مع الراهب، والمغامرة التي يتعرض لها بسبب هذه العلاقة لو انكشفت، وخاصة أنه مرشح لأن يكون ساحر الملك بعد وقت قصير، وأن يصبح ذا مال وجاه وسلطان ونفوذ.
ب- أن الغلام توجه بالدعاء إلى الله، فقال اللهم، فلم يدع الملك أو غيره من المخلوقين، مما يدل على صحة عقيدة هذا الغلام وإيمانه بالله.

ج- أن الكرامة التي سألها الغلام لا يستطيعها أحد من البشر أو الآلهة المزعومة، إنما يستطيعها الله القوي القادر، ولو لم يكن الغلام مؤمنا بالله لما طلب مثل هذه الخارقة التي لا يستطيعها البشر أيا كانوا.
د- إن الغلام كان طلبه: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، ولم يعكس الترتيب، فهو قد طلب زيادة اليقين في أمر الراهب فقط لا الساحر، إذ لو طلب الثاني فلم يتحقق لما أعطاه ذلك اليقين في أمر الراهب، إذ يمكن أن يكون كلا الأمرين خطأ، فهو حريص على اليقين في أمر الراهب ودينه.
وهذا المعنى يبين لنا أن المسلم عامة، والداعي خاصة، يمر بأطوار مختلفة ودرجات من الإيمان متفاوتة، فالغلام بدأ لا يعرف شيئا عن هذا الدين الحق، ثم تعلم وتربى على يدي الراهب وتدرج في مراتب الإيمان، حتى كانت النقلة من الإيمان إلى اليقين في هذه الحادثة إرهاصا ببداية مرحلة دعوية جديدة خاصة للغلام، قد أعده الله لها.

إن على الدعاة أن ينطلقوا في طريق العلم والعمل والتربية، وأن يحرصوا على الارتقاء بأنفسهم ومن معهم من إخوانهم، وألا يتوقفوا عن بذل الجهد في معالجة القلوب، ومحاسبة أنفسهم، ظنا منهم أن لصاحب الدعوة مرحلة ينتهي إليها في إعداده، ويصبح كاملا لا يخشى عليه، فإن للإيمان مراتب ودرجات، وهو ينقص ويزيد، وطوبى لمن بذل في الدنيا وزهد فيها، ولقي ربه وهو في أعلى المراتب بفضل الله ورحمته.
2- وحين طلب الغلام هذه الخارقة من رب العزة أخذ حجرا ثم سأل ربه ثم رمى الدابة فماتت.
إن الأخذ بالأسباب أمر ضروري يجب ألا يغفل عنه الدعاة، فلقد جعل الله للكون نواميس وقوانين لا تتخلف، وأمر المؤمنين بالأخذ بالأسباب ثم التوكل الكامل على الله عز وجل، وهذا ما فعله الغلام الذي أخذ بالأسباب المتاحة (الرمي بالحجر) ثم دعا الله متوكلا عليه وسائلا إياه، فإذا بالدابة العظيمة التي حبست الناس وأخافتهم تسقط من حجر صغير رمته يد غلام مؤمن.
وقد ذكر الله سبحانه في شأن يوم بدر (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)، وأمر الله مريم بالأخذ بالأسباب حين جاءها المخاض إلى جذع النخلة (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا)، مع أن هز النخلة عادة،

وبصفة خاصة من امرأة جاءها المخاض، لا يمكن أن يؤدي إلى إسقاط الرطب.
وفي الهجرة كانت الأسباب التي أخذ بها النبي صلى الله عليه وسلم من خروج في غير الوقت المعتاد، واستخدام دليل مشرك مأمون، والتوجه جنوبا بدلا من التوجه شمالا، والاختفاء في غار ثور، وسلوك طريق غير معتاد إلى المدينة ... الخ، تعليما لنا نحن المسلمين كي لا نتهاون في الأخذ بالأسباب ثم التوكل على الله.
3- والاهتمام بمشاكل الناس في المجتمع ومحاولة حلها ما أمكن درس آخر للدعاة في هذه الفقرة (فاقتل الدابة حتى يمضي الناس)، وهكذا يجب أن يكون الداعي إلى الله، محبا للخير، حريصا على إزالة المشكلات وحلها للناس، لأنه مأمور بفعل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأن هذا السلوك يفتح أمامه قلوب الناس، فتكون مهيأة لقبول ما يدعو إليه بثقة، لما علمت منه من الخير والبر.

قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)، إن علينا ألا ننسى هذا الباب المهم من أبواب الدعوة إلى الله، فنخالط الناس ونصبر على أذاهم، ونحل مشاكلهم، ولو كانوا عصاة يلفهم الجهل، بل إن مجتمع الغلام كان كافرا بالله لا عاصيا فحسب، وندعوهم إلى دعوة الله الناصعة، والاستمساك بحبله المتين، وإلى التعاون على البر والتقوى، فيكونون حينئذ أقرب إلى الاستجابة والتفاعل مع الدعوة، إلا أنه يجب ألا نفرط في هذا الأمر إفراطا يشغلنا عن واجبات الدعوة وأهدافها الكبرى.
4- قال الإمام النووي في شرح الحديث (هذا الحديث فيه إثبات كرامات الأولياء).
والناس الآن بين منكر للكرامات، ومثبت لها إلى حد الاعتقاد أن صاحب الكرامة له قدرة شخصية ربما ترفعه إلى مقام الأنبياء. وهما مزلقان خطيران في هذا الباب المهم، لذا أفرد الإمام حسن البنا لذلك أصلا في الأصول العشرين التي هي أطر لفهم الإسلام ينبغي الاتفاق عليها، قال (ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى (الذين آمنوا

وكانوا يتقون)، والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد مماتهم، فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم) رسالة التعاليم.
فالله سبحانه قد يمن على بعض الدعاة الصالحين بكرامات وخوارق، أو بما شاء، لكن الأمر يجب أن يفهم بقدره وضوابطه الشرعية بلا إفراط ولا تفريط.

5- والناس قد تحدثوا بهذه الحادثة العجيبة، وتناقلوا خبر الغلام، وذاع صيته بين الناس كمقدمة قدرها الله تعالى قبل الأحداث التي تتلوها، فعلى الدعاة أن يعملوا على أن ينتشر بعضهم بين الناس فيخالطوهم ويتفاعلوا معهم، ويسدون لهم الخدمات، ليراهم الناس ويعرفونهم عن قرب، ويعرفون أنهم لا أطماع لهم في مال أو جاه أو حكم، كما يشاع عنهم ظلما، وأنهم إنما يعملون لله وحده لينالوا أجره، ويدخلوا الجنة بإذنه وفضله ورحمته،وحين يتيقن الناس من هذه الحقيقة عمليا سيكونون عونا للدعاة وسندا لهم، بل سيكون بعضهم في صفوف الدعاة العاملين المجاهدين لإعلاء كلمة الله، هذا بالإضافة إلى أن التفاف الناس حول الدعاة وحبهم لهم يعطي الدعوة قوة وحماية، إلى حد ما، وقدرة على النشاط والدعوة والتغلغل بين الناس.

6) قال: (فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى).

1- قوله (فأتى الراهب فأخبره) دليل نسترشد به، ونضيفه إلى ما سبق ذكره عن طبيعة العلاقة بين الداعي والمدعو وشمولها.
إن الغلام انطلق إلى الراهب ليخبره بما حدث وبما قال، ولنا أن نتصور لو أن الغلام لم يخبر الراهب تفصيلا بما حدث، فهل كانت الأمور ستسير بنفس الصورة التي سارت بها، لقد أدرك الراهب هذا الحدث الكبير ودلالاته، فأطلق الغلام في هذه المرحلة الجديدة وبصّره بأحداثها، وكلفه بالكتمان ... فهل كان سيفعل ذلك لولا معرفته بالحدث بسبب صدق الغلام ومصارحته معه.

ومرة أخرى فإنا لا نقصد المبالغة في طبيعة العلاقة، ولكننا نقصد بيان أهمية عمق الاخوة، والثقة، والتداخل، والصراحة، والصدق، بين المربي وتلميذه، مما يتيح للمربي الفرصة للمتابعة والتوجيه إلى ما يناسب ظروف المدعو وطاقته.

2- (فقال له الراهب أي بني).

ولفظ أي بني فيه دلالة على الحب والعاطفة التي ربطت بين الراهب وتلميذه، حتى وهو يحدثه في أمر مهم وجاد، إذ أنه لا تعارض بين الأخوة والحب، وبين الجدية والحزم والحركة والإداريات.

إن الحب في الله والذلة على المؤمنين لمن أعظم ما منّ الله به على عباده بعد الإيمان بالله، فعلينا ألا ننسى في غمرة الأحداث، والعمل، والانفعالات، فريضة الحب في الله، وركن الأخوة، فإنهما أمضى أسلحة المؤمنين بعد الإيمان في معاركهم مع شياطين الإنس والجن، وعلى المربي أن يغرس هذا الحب وهذه العاطفة في قلوب إخوانه، وأن يربيهم على ذلك، قال تعالى (إنما المؤمنون أخوة)، (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)، وقال صلى الله عليه وسلم (وتبسمك في وجه أخيك صدقة) الترمذي، (المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء) الترمذي.

3- (أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى).

هذه العبارة لا يقولها الا صاحب الإخلاص المتجرد، وصاحب الفهم والتقدير الصحيح، إذ أن حب الظهور، والغرور، وحب الرياسة، من أشد وأخطر أمراض القلوب التي يتعرض لها البشر، فالدعوة قد تخفي في الانسان الذي يمارسها حبا خفيا للتميز، باعتبار أن هذه الممارسة صورة من صور تميزه عن الناس، بل وعن أخوانه الدعاة في كثير من الاحوال، وإن حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الثلاثة (المنفق والمجاهد والعالم) الذين أختلطت نياتهم، وطمعت قلوبهم في الدنيا بأشكالها المختلفة لكفيل ببيان خطورة هذا الأمر.

عن سليمان بن يسار قال: تفرق الناس عن أبي هريرة فقال له ناتل (تابعي من فلسطين) أهل الشام أيها الشيخ حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن

أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار) أخرجه مسلم.

وحين بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بيعة العقبة الثانية بعد أن بيّن لهم تكاليف هذه البيعة سألوه: فما لنا إن نحن وفينا بذلك؟ فلم يزد على أن قال: الجنة. فلا رياسة ولا جاه ولا مال، ولا حتى نصر مؤكد على أيديهم، وإنما ربطهم بالاجر الحقيقي حتى ترتفع نفوسهم فوق هذه الدنأيا.
وقد استنّ الإمام البنا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم فقال في رسالة دعوتنا (ليس عندنا من جزاء الا ثواب الله إن أخلصت، والجنة إن علم فيك خيرا، أما نحن فمغمورون جاها، فقراء مالا، شأننا التضحية بما معنا، وبذل ما في أيدينا، ورجاؤنا رضوان الله).
ويقول الشهيد سيد قطب (وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع – وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء – إلى شيء في هذه الارض، ولا تنتظر الا إلى الآخرة، ولا ترجو الا رضوان الله ... بلا جزاء في هذه الارض قريب، ولو كان هذا الجزاء انتصار الدعوة وغلبة الإسلام، وظهور المسلمين، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين) المعالم.
لهذا نهى الإسلام عن تولية من سأل الامارة صراحة، أو أرادها رغبة، ولو بغير تصريح، كما ورد في الحديث (إنا لا نولي هذا من سأله ولا من حرص عليه) البخاري.

وقد يكون مراد الراهب من قوله أنت اليوم أفضل مني: من حيث الاستطاعة، فهو غلام يافع، ومن حيث أنه أقدر على البلاغ حيث ظهرت على يده خارقة لفتت أنظار الناس.
ومن هنا نقول: إن المربَّي قد يقوم بعمل دعوي لا يستطيعه مربيه.
دروس دعوية :
1- زيادة في بيان خطورة أمراض القلوب على الناس، وخاصة الدعاة، ننقل طرفا من أقوال بعض السلف في هذا الباب :
قال سفيان الثوري: أياك وحب الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره الا البصير من العلماء السماسرة فتفقد نفسك واعمل بنية.
وقال الفضيل: ما أحب أحد الرياسة الا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب، ليتميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر النأي أحدا عنده بخير، ومن عشق الرياسة فقد تودع من صلاحه.
وقال يوسف بن أسباط: الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا. (نقول من العوائق).

ومن الأمراض القريبة من حب الرياسة :
ا- العجب: فبعضنا اليوم تخالط قلبه أدران الغرور، ويوهمه خيره القليل، فيغتر إدلالا، ويتوقف عن الاستزادة امتنانا، آمنا غير وجل، وقانعا غير طامع، قال الزاهد عبد العزيز بن أبي رواد: إذا ذكرت أحوال السلف بيننا افتضحنا كلنا.
ب- حب محمدة الناس القولية والعملية: قال الفضيل: إن من علامة المنافق أن يحب المدح بما ليس فيه، ويكره الذم بما فيه، ويبغض من يبصره بعيوبه.
وقال خالد بن صفوان: إن أقواما غرهم ستر الله، وفتنهم حسن الثناء، فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك.
ج- مدح النفس باللسان: قال تعالى (فلا تزكوا أنفسكم).
د- ذم النفس أمام الغير: قال الحسن البصري: من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها وذلك من علامات الرياء.
ه- ذكر عيوب الاقران الآخرين: قال الفضيل: إن من علامة المنافق أن يفرح إذا سمع بعيب أحد من أقرانه.

ولنا في عمر بن عبد العزيز قدوة إذ قال في أول خطبة له بعد توليته: الا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملا.
نعم حين تزول المزأيا المصطنعة (المادية منها وغير المادية)، والطبائع المتكلفة (سواء في الامير من غرور، واعتقاد أنه وحيد عصره، وفريد دهره، أو فيمن حول الامير من إطراء ومدح ومبالغة في القول والفعل، ونفاق في إبداء الرأي ... الخ)، ويحل التواضع، وتسود الاخوة، لن يتبقى من معنى الامارة والرئاسة الا ثقلها الثقيل. نقول من العوائق بتصرف.

2- إن ميزان تقديم الرجال في العمل الجماعي ليس القدم في الدعوة، أو الكبر في السن، وإن كنا لا نغمط من شأن التجربة الدعوية والخبرة الحياتية، وإنما يكون التقديم بشروط لازمة، بعضها ثابت لا يتغير: حد ادنى من الفهم، والعلم، والحركة، والخبرة، والاخلاق والالتزام، وبعضها يتغير بحسب نوع العمل المطلوب: فمواصفات قائد الجيش الاضافية مثلا غير مواصفات المعلم أو المربي، وتختلف عن مواصفات السياسي، وهكذا.

ولقد دخل عدد من الصحابة الإسلام متأخرين وولاهم النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده على من هم أقدم في الدعوة وأكبر في السن منهم مثل خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وأسامة بن زيد، والمثنى بن حارثة.

3- إن وجود مثل هذه الظاهرة (حب الرياسة أو الحسد) في نفسية البعض من الدعاة ضيع على الدعوة فرص الاستفادة من أفراد ذوي مواهب وإمكانات، وقدرات، وخبرات، لا لسبب الا الشعور بأن هؤلاء سيأخذون منه مكانته وفضله (وهو لا يعلم أن مكانته وفضله عند الله خير وأبقى من المناصب والالقاب، وكلمات الثناء، ونظرات الاعجاب)، فيبدأ من حيث يدري أو لا يدري التجريح والتسفيه والتشكيك، وإشاعة الاخطاء الصغيرة على أنها كبائر، أو تأول الامور تأولا بعيدا عن الحقيقة، بل وفي بعض الاحيان الكذب والبهتان الصريح، مع إثارة المشاكل، وإفساد الافراد بنشر القيل والقال، وقد يصل الأمر إلى حد التحدي، فتفسد سلوكيات البعض، وينكص البعض ويحبط، ويفتر البعض، ويشيع جو من فقدان الثقة وضياع الاخوة والانقسام في الصف، وربما انشقاقات وفتن يصعب بعدها رأب الصدع، ويحمل من فعل هذا إثمه وإثم من تجرأ بعده على فعل ذلك، وكما قيل: (وربما عذر المقلد وناء الرائد بإثمه).

4-   وتلزم الاشارة السريعة غلى الوجه الآخر مما كنا نتحدث فيه (وإن لم يكن لها علاقة بالحديث)، فإن ظاهرةغرور بعض الشباب الذي تربى في أحضان الدعوة –أو خارجها- ثم بعد فترة إذا به يتطأول على أخوانه الدعاة وأساتذته لهي أيضا ظاهرة خطيرة ومرفوضة، فأصحاب الفضل والتجربة والخبرة، والذين ربما لولا تسخير الله لهم لما وصلت إليه الدعوة، يجب عليه احترامهم والثقة فيهم، فلا يرمي هذا بالجبن، وذاك بقلة العلم، والآخر بضعف الرأي لمجرد أن القيادة لم تعمل برأيه المتحمس، ولم تتبن وجهة نظره، فتهتز الاخوة والثقة، ثم الطاعة، ثم بقية الاركان تباعا، بالاضافة إلى إشغال القيادة والدعاة عموما بالقيل والقال، والرد على الشبهات، والمجادلات الطويلة، فتضيع الاوقات وتتعطل المسيرة، وتفتر العزائم وتتفتت الجهود، ولا يستفيد الا أعداء الإسلام، ويتحمل مثل هؤلاء الشباب مسؤولية هذه النتائج أمام الله سبحانه وتعالى. ولو أنهم التزموا بالنصح في الله وآدابه، ثم التزموا بما عليه أخوانهم، وإن خالف رأيهم، ما لم يكن معصية أو انحرافا حقيقيا، لكفوا أنفسهم وأخوانهم ذلك.

5-   وقد يعدم المربون والدعاة مثل هذه العلامة الظاهرة الواضحة ليفعلوا مثل ما فعل الراهب، وإنما هو التقويم المستمر لأخوانهم سلوكيا وعباديا وفكريا وثقافيا وعمليا وحركيا ... الخ، حتى إذا ما اطمأن الداعي إلى مستوى أخيه بدأ يزيد من تبعات ومسؤوليات الدعوة تدريجيا عليه، ويوجهه ويفتح له مجال التفكير والاجتهاد والعمل، مع متابعته حتى يتم نضجه.
إن الدعوة التي تتمكن من تربية رجال مثل الراهب والغلام لجديرة بوصف نواة الامة، ولجديرة بأن تكون خطواتها أعمق، وطريقها إلى النصر أقصر بإذن الله.
6-   ونلاحظ في بقية الحديث أنه لم يصدر من الغلام ما يفيد غروره أو تكبره أو خللا في سلوكه، بل على العكس، وهذا نجاح رائع لتربية الراهب بفضل الله، ويكون نجاحا مماثلا للجماعة التي يكون أفرادها من أمثال الراهب قائدا والغلام جنديا وداعيا.
7-   إن التلميذ قد يفوق شيخه في الصلاح والتقوى، أو في العمل والكفاءة، وقد ترتفع منزلته عن منزلة شيخه، وقد يتقدم الجندي على قائده، ولكن هذا يجب الا يبعث في نفس المتقدم العجب والغرور، والتطأول على الناس،

وأصحاب الفضل من الدعاة. إن للناس طاقات وقدرات تتفأوت، والإسلام يجعل لهم ميدانا فسيحا يتسابقون فيه في الخير، ويتقدم صاحب الكفاءة والامانة والقوة.
إن الراهب قد أخذ بالأسباب وخالط الغلام وعلمه، وظل يربيه ويدربه، حتى رأى في ذلك الحادث ما لم يدركه الغلام نفسه، فالداعية المتصل بالله المستعين به والمتجرد يفتح الله له آفاقا من الفراسة والفطنة، فلما رأى الراهب هذه الاشارة أخبر الغلام بالحقيقة وتبعاتها من الابتلاء في سبيل الله عز وجل، حتى لا يغتر، فمكانته الإيمانية وتقدمه يقتضيان جهادا أكبر وابتلاء أشد وحملا ثقيلا، ولقد علم الراهب أن الناس درجات ومقامات، وأن الفضل بيد الله وحده يؤتيه من يشاء، فأطلق الغلام الناضج في مكانه المناسب، وزوده بتوجيهاته، وهو يعلم أن له من الاجر مثل ما للغلام، من غير أن ينقص ذلك من أجر الغلام شيئا، وفي هذا الكفاية.

7) قوله : (وإنك ستبتلى).

قال ابن علان: بالبناء للمجهول، ويحتمل أن يكون هذا منه بطريق الكشف فيكون كرامة، أو بطريق الفراسة، أو بطريق العادة والتجربة، إذ من خالف الناس في منهجهم ابتلوه وآذوه (دليل الفالحين).
1- وعلى كل فإنه لابد للداعية أن يعرف طبيعة طريق الدعوة جيدا حتى لا يفاجأ، أو يضطرب إذا واجهته محنة أو ابتلاء، إذ الابتلاء سنة من سنن الله لابد أن تقع وأن تتحقق، وهو أمارة على حب الله للمبتلى، فإن الله إذا أحب عبدا ابتلاه، ويبتلى الرجل على قدر دينه، فإن وجد في دينه صلابة زيد له في البلاء.
إن الذي يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويعمل لإعادة مجتمعه إلى الله لابد وأن يتعرض للابتلاء والاختبار، وقد قال لقمان لابنه (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف انه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الامور)، وفي العديد من الايات (الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين

خلوا من قبلكم مستهم البأسآء والضرآء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا إن نصر الله قريب)، (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)، (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين)، (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الامور).
وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)، وقال صلى الله عليه وسلم (أشد الناس بالء الانبياء ثم الامثل فالامثل) البخاري وغيره، وإن المتتبع لسير الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعا ليدرك أن الابتلاء والمحن والاذى جزء من طريق الدعوات، يمحص الله به عباده المؤمنين ويرفعهم به درجات.

إلا أن الراهب لم يكتف بمعرفة هذه الحقيقة، وإنما ذكرها واضحة جلية في اللحظة المناسبة للغلام حتى يبصره بما سيلاقيه في المرحلة القادمة، فإن الصدع بالحق يثير أهل الباطل، لأن الحق ابتداء يفضح ما هم عليه من باطل، وانتهاء يمتد لإزالته على أي وجه، لذا تبدأ المواجهة والاذى والاضطهاد، وحتى يضعه أمام مسؤوليات هذه المرحلة، فلا يغتر بما سمعه من أستاذه: أنت اليوم أفضل مني، وإنما علمه أن لهذا الفضل ثمنا ليس بالهين وهو الاختبار والابتلاء، وأن عليه واجب الصبر والعمل لدعوته حتى آخر نفس من حياته، ومهما كلفه أداء هذا الواجب العظيم.

2- **والابتلاء نوعان رئيسيان : ابتلاء فردي، وابتلاء جماعي.**

الابتلاء الفردي (في غير معركة مع الباطل) أنواع منها : فقد عزيز، أو فقد جزء من الجسم، أو مرض عضال، أو ذهاب المال ... الخ، ومن أمثلته ابتلاء أيوب عليه السلام، وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ومحمد صلى الله عليه وسلم، ومن حكم الابتلاء الفردي: تكفير السيئات، ورفع المنزلة

والدرجات، والمكافأة في الدنيا، وأخلاص النفوس لله، وإظهار حقائق الناس، والاقتداء بالصابرين.
أما الابتلاء الجماعي (أثناء الصراع مع الباطل) فله صور منها :
ا- الحملات الاعلامية (الاستهزاء والسخرية، الاتهام بالكذب، الاتهام بالجنون، الاتهام بالسفاهة والضلالة والافساد، الاتهام بالسحر والكهانة والشعر، والاتهام بالعمالة للغير).
ب- التهديد بالاذى (بالضرب، والرجم، والسجن، والنفي والتشريد، والتهديد بالقتل والتنكيل، والتهديد في الرزق).
ج- الاغراء بالمال والجاه والسلطان.
د- إلحاق الاذى الجسماني (تعذيب بالنار وبالخنق وبإلقاء القاذورات على الدعاة، وبالضرب والجلد، ونزع اللحم عن العظم، والنشر بالمنشار، والتغطيس في الماء، والبصق في الوجه، والربط بالحبال).
ه- الابتلاء بالسجن.
و- النفي والتشريد.
ز- مصادرة الاموال.
ل- التصفية الجسدية.
وغير هذا موجود أيضا، ولا يفتر الطغاة عن الابتكار في أساليب فتنة وأيذاء الدعاة إلى الله، والله من ورائهم محيط (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق).

8) قوله (فإن ابتليت فلا تدل عليّ).

قال ابن علان: بالبناء للمجهول، وأتى بحرف الشك ثانيا مع تحقيقه ذلك أولا وتأكيده، لأن ذلك بحسب ما قام عنده مما يقتضي وقوع ذلك، حتى جزم به وأخبر عما عنده منه، وما هنا باعتبار الواقع وما يبرز في عالم الشهادة، فإن الفراسة قد تخطئ، التجربة قد تختلف، والكشف قد يعارض. أو قصد به التخفيف عن الغلام فلا يخاطب بجملتين تدلان يقينا على الابتلاء، لئلا يصير في الكرب قبل حلول البلاء (دليل الفالحين).

1- إن الحفاظ على الدعاة الذين هم رأس مال الدعوة ووقودها، من أن تستأصلهم يد الباطل قبل أوان المواجهة، باتخاذ كل الأسباب البشرية المتاحة والممكنة، واجب شرعا وعقلا، وإن المغامرة بكشف رجال الدعوة دون جدوى حقيقية، أو في غير خطوات مدروسة بعناية، أمر يحاسب عليه المؤسسون والقادة من أمثال الراهب أمام الله سبحانه وتعالى، ولا عذر لهم في التهأون فيه والتخاذل أو التهور والاندفاع، فإن أخذوا بالأسباب وخططوا وعملوا، ثم قدر الله لهم غير ما أرادوا فذلك محض قدر الله الذي أراده لعباده (والله غالب على أمره)، (ويتخذ منكم شهداء)، وهو الخير لهم ولدينه سبحانه وتعالى يقينا.

إن الكتمان والحذر من أهم الأسباب للحفاظ على الدعوة ورجالها، وهناك الكثير من الادلة على مشروعية هذا الأمر ووجوبه عند الحاجة إليه :

فمن القرآن الكريم :

ا- (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم).

ب- (فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا أبدا).

ج- (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم).

د- (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم أيمانه).

ومن السيرة النبوية :

ا- قول النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ الذي لقيه قبل غزوة بدر حينما سأله من أين أنتم؟ قال (نحن من ماء) البداية والنهاية وسيرة ابن هشام.

ب- وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم ما خرج في غزوة الا ورى بغيرها (سيرة ابن هشام).

ج- ما رافق السنوات الثلاث الأولى للدعوة من سرية شديدة، ثم خفت شيئا فشيئا حسب الظروف والاحوال، لكنها ما انعدمت أبدا في مرحلة من المراحل، وقد سبقت أية الفتح فتأملها.

د- اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لدار الارقم بن أبي الارقم، وما كان في هذا الاختيار من حذر وسرية، إذ الارقم من قبيلة بني مخزوم، وهم أعداء بني هاشم، فلا يعقل ان يعقد محمد صلى الله عليه وسلم اجتماعاته عند

أعدائه، وكان الارقم آنذاك ابن ستة عشر عاما، كما أن إسلامه لم يكن معروفا في وقتها.
ه- كتمان إسلام نعيم بن مسعود، ومدى الفائدة الكبرى من ذلك إذ استطاع أن يغير مجرى المعركة بالوقيعة بين الاحزاب وبني قريظة، وقد وجهه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الاستفادة من ذلك بقوله: إنما أنت رجل وأحد فخذل عنا ما استطعت، فإنما الحرب خدعة (البداية والنهاية).
و- كتمان النجاشي إسلامه، والذي بفضله استطاع أن يستمر في الملك، ويحافظ على المسلمين المهاجرين في الحبشة (صلاة النبي عليه في الصحيحين).
ز- إرسال النبي صلى الله عليه وسلم لعدد من المسلمين إلى الحبشة وذلك ليحافظ عليهم من الايذاء والفتنة في الدين في مكة، وليكونوا قاعدة انطلاق احتياطية للإسلام، ولم يرجعوا الا في فتح خيبر، رغم بعدهم عن الرسول والوحي، واحتياج الرسول إليهم في الدعوة والجهاد (راجع قصة أجر مهاجري الحبشة في الصحيحيحن)، فإرسال النبي صلى الله عليه وسلم لهم يتفق مع السرية والحذر في المضمون (الحفاظ على الدعاة من الوصول إليهم وأيذائهم) وليس في الشكل (عدم معرفة أسماء الاشخاص).

ك- إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ليعلم الدأخلين في الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن سرا، مثل ما كان يفعل خباب بن الارت، فقد كان خباب يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرؤها القرآن، وقصة إسلام عمر بسبب أخته معروفة (سيرة ابن هشام).
ل- أحداث الهجرة كلها تدل على درجة عالية من النظام والسرية : تخير الوقت المناسب للخروج، عدم إعلام أبي بكر نفسه أول الأمر، ثم أعلمه في وقت لم يكن يذهب فيه إلى أبي بكر، اختيار الدليل، قيام أسماء وعبد الله ابني أبي بكر بمهام في هذا الأمر، سلوك طريق غير الطريق التي اعتادها الناس إلى المدينة، قول أبي بكر لمن سأله في الطريق عن الرسول صلى الله عليه وسلم: هاد يهديني السبيل ... الخ.
س- ومن الادلة أيضا القاعدة الاصولية التي يسمسها العلماء (مقدمة الواجب) وهي: (ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب)، ثم نقول: إن إقامة دولة الإسلام ثم الخلافة الإسلامية، وتحكيم شرع الله بدلا من أحكام البشر واجب، لأنه لا

يقوم الدين في الارض الا بذلك، ولا يمكن الوصول إلى ذلك الا بمزيد من العمل الدائب والحركة المتواصلة البعيدة عن أعين الاعداء أيا كانوا، إذ الكيد للإسلام عالمي والتأمر دولي، والحرب على الإسلام سافرة معلنة، والواقع يشهد بذلك، والاعلان دائما بحتمية إجهاض كل عمل للإسلام، والقضاء على الصحوة الإسلامية أو ما يسمونه بالاصولية أو التطرف على سبيل الخداع اللفظي. إذن تحصل لنا مما سبق : أن إقامة الدين أمر واجب، ولا يتم الا بالحذر والسرية والتربية والتخطيط والاعداد، فيكون كل ذلك واجبا، وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب.

2- ثم إن الدول اليوم، والكبرى منها على وجه الخصوص مثل أمريكا وفرنسا ... تلجأ إلى العمل السري في كثير من الجوانب (المخابرات، المعلومات، التجسس، الابحاث السرية، الانفاق السري، العلاقات السرية، الاتفاقات السرية، العملاء السريين ... الخ)، وذلك للحفاظ على قوتها، ولتعزيز قدرتها أمام أعدائها، هذا في الدول القوية المستقرة صاحبة النفوذ، فما بالنا بالمستضعفين من المسلمين، أيقفون كاشفي صدورهم وظهورهم لأعدائهم ولجبابرة الطغيان والكفر.

3- ويجب على الداعي الا يتكلم بكلام أو يخبر بخبر أو يفشي سرا يؤدي إلى أيذاء أخوانه المؤمنين، ولو لقي في سبيل كتمان أسرارا المسلمين العنت والمشقة والتعذيب، وعليه الا يدع طاقة مذخورة من صبره قبل أن يتكلم كلاما أو يفشي سرا يؤذي المسلمين ويهتك أستارهم وأسرارهم. ولعل في قصة حاطب بن أبي بلتعة عبرة، إذ عد بعض الصحابة فعله جريمة تستحق القتل لأنها خيانة للمسلمين بإفشاء سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينج الا لأنه شهد بدرا كما ورد في الحديث (ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) البخاري ومسلم.

4- وتوجيه الراهب للغلام بالا يدل عليه إن ابتلي كان تخطيطا للدعوة وسيرها، ولم يكن جبنا أو خوفا، إذ أن الراهب صبر على النشر بالمنشار حتى الموت ولم يترك دينه، فهل يتهم مثل هذا بالجبن، أم أن المسألة هي خطة وإعداد.

5- ثم إنه بعد الاخذ بالأسباب، قد يقدر الله غير ما نريد، فإن الغلام حين عذب لم يتحمل العذاب ودل على الراهب كما سيأتي في الحديث، وكذلك

لحق سراقة بن مالك بالنبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وهما في طريقهما إلى المدينة، بالرغم مما أخذه النبي صلى الله عليه وسلم من أسباب، وكذلك أهل الكهف بعد ما أخذوا حذرهم، وتلطف رسولهملئلا يظهر أمرهم، أعثر الله عليهم ليقضي أمرا كان مفعولا، على أن ذلك لا يجعلنا نهمل الأسباب، أو نخطئ أنفسنا، إذ أن الامور كلها بيد الله (والله غالب على أمره).

6- ويجب علينا أن نفرق بين الحفاظ على الدعاة لذواتهم، وبين الحفاظ عليهم لأنهم حملة الدعوة، والحفاظ عليهم حفاظ على الدعوة واستمرارها ونموها وتقدمها نحو أهدافها، والخلط بين الأمرين خطير، فالاصل هو (إن الله استرى من المؤمنين أنفسهم وأمواله بأن لهم الجنة)، لا أن نؤثر العافية لأنفسنا، ويحتاج هذا الأمر إلى محاسبة للنفس مستمرة ومراجعة دائمة، فالقلوب أشد تقبل من القدر إذا اشتد غليانه، نسأل الله الإخلاص والصدق والثبات على الحق.

دروس دعوية :

1- إن مسألة السرية والعلنية مسألة نسبية أثناء السير في مراحل الدعوة المختلفة، وليست مسألة مطلقة (أي سرية فقط أو علنية فقط)، ففي مراحل التأسيس تكون السرية أغلب، وقد تصل إلى السرية المطلقة، كما كان الأمر في السنوات الثلاث الأولى من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وبعدها يكون جزء معلن مع بقاء أجزاء غير معلنة، حتى بعد إقامة الدولة الإسلامية، كما حدث مع مهاجري الحبشة حتى فتح خيبر، وبين الاثنين مراحل وتدرج واحتياجات للدعوة، وغني عن الذكر أن كلامنا لا يختص الا بالعمل الجماعي المنظم.

إن السرية والعلنية والصبر والمطاولة والجهاد والمواجهة وغيرها، أمور ترتبط ارتباطا وثيقا بالمرحلة التي تمر بها الدعوة، فإن الدعوة الإسلامية الأولى التي طعنت فيها السيدة سمية بنت الخياط رضي الله عنها بوحشية في فرجها حتى مضت شهيدة إلى ربها، ولم يتحرك أحد من المسلمين للثأر لها ولسائر المستضعفين، هي هي الدعوة الإسلامية التي خاضت حربا لأن يهوديا مجرما كشف سوأة أمرأة مسلمة.

إنها المراحل والظروف المحيطة، وقوة الدعوة على رد العدوان، وتحجيم أعداء الله، هي التي تحدد تفاصيل العمل والادوار المختلفة، فينبغي علينا ألا نجنح إلى السرية خوفا من المواجهة، أو إلى العلنية اندفاعا وتهورا،

وإنما تنتقل الدعوة من طور إلى طور بتدرج دون طفرة واستعجال، وكذلك دون تفويت للفرص أو خوف من الأذى أو تقصير في الإعداد اللازم الشامل.

2- **شبهة وجواب:**

يحتج بعض الدعاة بأن الإمام الشهيد حسن البنا رضي الله عنه بدأ الدعوة بشكل علني، ويرى البعض الآخر أن البداية العلنية وخوض العمل العام السياسي وحرب فلسطين بالشكل الذي تم تسبب في كشف أعداء الله لخطورة الجماعة عليهم، فوجهت إليهم الضربات المتتالية المتلاحقة في مصر وغيرها، وأن السرية كانت أولى في هذه الفترة.

والحقيقة أن الإمام كانت مهمته في بداية الدعوة تجديد إسلام وأيمان الناس، ونشر المفاهيم الإسلامية الصحيحة، حتى يتمكن من جمع المتفاعلين من هؤلاء، والراغبين في العمل لهذا الدين، ليكون منهم نواة الامة التي تقوم بإعادة الحياة الإسلامية، بما في ذلك الخلافة الإسلامية، فكان من الاوفق، على ما نرى، أن يبدأ بداية علنية وذلك لما يأتي :

ا- أن الجماعة كانت بحاجة إلى سرعة انتشار مبدئية، والوصول إلى عدد كبير من الناس، ثم انتقاء من يصلح منهم لعمل الجماعة، وكانت الظروف تساعد على تحقيق هذا الأمر.

ب- أن الجماعة لم يكن لها أعداء آنذاك، ولك تكن معلومة عند خصوم الإسلام، فاستثمر الإمام هذا الأمر ولذلك فإنه قال (إن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها ستلقى منهم خصومة شديدة وعدأوة قاسية) (رسالة بين الامس واليوم)، فاتسعت قاعدة الجماهير حول الجماعة، ثم بدأت مرحلة الاختيار والتربية والتكوين، ثم قام بتكوين النظام الخاص، ونظامي الوحدات لضباط الجيش والشرطة، وكانت على مستوى مرتفع من الجندية والتربية الجهادية، بالرغم من بعض الاخطاء التي وقعت من بعض قادة النظام وأفراده كما هو معلوم، والتي لا يصح أن تطغى على الايجابيات التي كانت موجودة أيضا، والأمر ينبغي أن يدرس ويقوّم بموضوعية، ولكن الله جلت حكمته شاء الا يتم الإمام البنا الخطوات بعد أن أوضح الطريق، ووضع الاسس، فاتخذه الله شهيدا في سبيله، ولا نزكي على الله أحدا، الا أنه ربى جيلا من الدعاة قادرا بحول الله وقوته على

حمل الرسالة، والجهاد في سبيلها، والاستمرار على ذلك، إلى أن يمكّن الله لدينه في الارض، ويكون الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا.
إن السرية الشديدة قد تكون مطلوبة في المراحل الأولى في الاقطار التي فيها تضييق على الدعاة، أو في فترة علم فيها أعداء الإسلام فكر الدعوة وأهدافها، وأساليب عملها، أما عند عدم المعرفة، وعدم التضييق، فلا بأس من البدأيات العلنية المحسوبة، والمخطط لها، مع عدم إغفال وسيلة السرية في المراحل كلها.
إن الخطوات التي سار فيها الإمام البنا منذ بداية الدعوة وحتى استشهاده كانت فيما نحسب خطوات منطقية وطبيعية، سةاء بالنسبة للنشأة العلنية، أو المواقف السياسية المعلنة، أو حرب فلسطين، إذ أن هذه المواقف وما جرى على أرض فلسطين هما دليل عملي على صحة الفهم والطريق، وسلامة التوجه والعمل، وبدون هذا الرصيد الضخم والتاريخ المسطور ربما ما قامت الدعوة في كثير من البلدان، وما وصلت إلى ما وصلت إليه الان، وعليه فإن الأمر نسبي كما ذكرنا، فلا يحتجن أحد ببداية البنا العلنية، ولا ينكرن أحد هذه البداية العلنية أو المواقف الواضحة الصريحة.

ج- واستطراد آخر يختص بمن يدعون إلى العلنية المطلقة، وهذا يخالف ما كان عليه رسول الله عليه وسلم في سيرته في المراحل المختلفة، فالذين يدعون إلى العلنية الكلية والايتغراق التام فيالعمل السياسي، مع ضعف الاهتمام ببناء الصف، والتربية، والتكوين، نسوا أن أهداف الدعوة تغييرية، لا إصلاحية جزئية، أو ترقيعية لأنظمة شوهاء قائمة تحكم بغير ما أنزل الله، وتحارب الله ورسوله، ونسوا أيضا أن الهدف الأول هو بناء نواة أمة قوية لتغير الواقع القائم، وأن الكيد العالمي لهم ضخم وكبير، وأن التاريخ من أيام الدعوة الأولى للنبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا يظهر كل هذا بوضوح، وأن أعداءنا لن يسمحوا لنا أن نصل إلى ما نريد عن طريق السياسة والديموقراطية التي يتغنون بها، ويتلاعبون بها وبنا، وما أحداث الجزائر التي اقترب فيها المؤمنون من الحكم عن طريق الديموقراطية منا ببعيد، فخيوط اللعبة السياسية في أيديهم، والمقدار المسموح به لنا محدد، فليس لنا الا الممارسة السياسية الجزئية الجادة بهدف التأثير في الناس، واكتساب

خبرات ومعلومات حجزء من عمل الدعوة الشامل، مع التركيز على بناء نواة الامة أفرادا وقوة في كل المجالات والتخصصات إعدادا للجهاد الشامل.
ويرى البعض الآخر أن المظلات القانونية (كالاحزاب المعترف بها، والجمعيات الرسمية، وكل الواجهات المقبولة قانونيا) هي الشكل المقبول لعمل الدعاة، وأن أشكال العمل بغير هذه المظلات خطأ ومرفوضة، وتدخل تحت مسمى العمل السري، والذي أصبح نتيجة عوامل تاريخية وتجارب معينة وكأنه انحراف فكري وعقيدي، وإن دعت إليه الظروف الواقعة، كالتضييق الشديد، وعدم كشف الدعاة لأعداء الإسلام، الذين يرقبون الإسلاميين ليلا ونهارا في كل مكان، ونتج عن ذلك حساسية عالية في تقدير أساليب العمل وأنواعه بين الدعاة. إن المظلات القانونية والسياسية وسيلة نستخدمها للوصول إلى الناس بسهولة ليس الا، أما الشرعية الحقيقية فهي للدعوة والدعاة، وإن لم يسمح لهم بوجود قانوني أو سياسي.

إن الشرعية للإسلام ودعاته أيا كانت الاتهامات التي تكال لهم، فنحن لسنا رد فعل لاتهامات الغير، ولكننا دعوة تعرف أهدافها ومراحلها وخطواتها، وتتخذ من الوسائل المتاحة في كل مرحلة ما يساعدها على التقدم في اتجاه المرحلة التي تليها، وما كانت الشرعية القانونية لتحمي الدعوة والدعاة إذا قرر أعداؤها توجيه الضرب إليهم، وما أحداث مصر في التاريخ الحديث، وكذلك سوريا والعراق وتونس وليبيا واليمن منا ببعيد.
إن إدراك هذه الامور، ومراجعتها والنصح بخصوصها، أمر هام وأساسي، إذ أن التوجه السياسي المبالغ فيه، مع إهمال التربية والاعداد والتذكير بفريضة الجهاد، يؤثر في توجهات الدعوة وخططها، فيقل الاعداد الجهادي الحقيقي بأركانه المختلفة، ويغلب على الانشطة والاعمال الاداء الاني والترأخي، وعدم فهم المراحل المختلفة، ودورنا في هذه المرحلة كجزء منها، وضعف روح الجهاد والتضحية.
د- إن السرية نفسها درجات، وكذلك العلنية درجات، فما بين السرية المطلقة والعلنية المطلقة درجات عديدة، مثلما بين الشيخ منير الغضبان في كتابه المنهج الحركي، ونكرر إن استخدام السرية بدرجاتها والعلنية بدرجاتها يتوقف على خطط الدعوة المرحلية، وأهدافها القريبة والبعيدة، والاستراتيجيات، فالمسألة نسبية تحدد في ضوء ما سبق ذكره.

هـ- إن دعوة الله هي صاحبة الحق الأول في أموالنا وأنفسنا (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم).
وإن مصلحة الدعوة هي المقدمة على مصالح الافراد وآرائهم الشخصية، سواء كانت المصلحة في الكتمان أو الاعلان، وإن أمر السرية والعلنية نسبي تحدده الظروف والمراحل، ويقرره أهل العلم والتجربة والقادة من أمثال الراهب، الذي قرر أن يستمر هو ومن معه بنفس أسلوب الحذر والكتمان، وأن ينطلق الغلام بإعلان الدعوة، والتحرك الواسع في المجتمع، على الا يدل على الراهب إن ابتلي، وذلك هو التخطيط الدقيق الجاد، لتحقيق مصالح الدعوة وأهدافها سواء بالسرية أو العلنية، ولنا في رسول الله القدوة الطيبة، ولنا في مراحل سيره بالدعوة، وتنوع الادوار والمراحل، الاسوة الحسنة، وغني عن البيان أننا لا نقصد بالكتمان والسرية أخفاء الإسلام والالتزام، وإن كان ذلك واردا في الاقطار التي تحارب كل مظهر من مظاهر الإسلام، وكل شعيرة من شعائره، حتى في تسمية الناس بأسماء إسلامية، فضلا عن محاربته كدين شامل ينبغي أن تكون له دولة، وخلافة إسلامية.

9) قوله (وكان الغلام يبرئ الاكمه والابرص ويدأوي الناس من سائر الادواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدأيا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، قال: إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك، فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى).

الأكمه : الذي ولد أعمى، وضبطها: بفتح الهمزة وسكون الكاف.
الأبرص : من وقع به البرص، وهو داء معروف.
1- لقد رزق الله تعالى الغلام من فضله، حيث كان مستجاب الدعوة، فيدعو للمرضى فيبرؤن حالا بإذن الله، وقد سبق أن ذكرنا قول الإمام النووي (هذا الحديث فيه إثبات كرامات الأولياء).

لقد غالى في أمر الكرامات فريقان من الناس: فريق أنكرها إنكارا شديدا لكل أحد وهم القدرية والمعتزلة، وفريق يثبتها في غير موضعها ولأي أحد متى ظهرت خارقة، فأدى ذلك إلى خلل في العقيدة وهم أكثر الصوفية، وهناك فريق أثبتها بضوابطها الشرعية وهم أهل السنة والجماعة.
والخوارق للعادة أقسام :
ا- المعجزة : وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة تصديقا له في دعواه.
ب- الكرامة : وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح، وسيأتي لها أمثلة.
ج- الاهانة : وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعي النبوة تكذيبا له في دعواه، مثل مسيلمة الكذاب حينما تفل في عين أرمد فعميت عينه السليمة، وحينما تفل في بئر قليلة الماء فغار ماؤها.
د- الاستدراج : وهي أمر خارق للعادة يظهره الله على يد رجل يدعي الالوهية استدراجا وامتحانا لغيره، مثل المسيح الدجال الذي تظهر على يديه خوارق متعددة.

ه- الإرهاص : وهي أمر خارق للعادة يظهره الله بين يدي بعثة نبي، تهيئة للناس لقبول دعوته، وتأكيدا لها، مثل حادث الفيل في العام الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم.
وقد عقد الإمام النووي بابا في رياض الصالحين ترجم له بباب كرامات الأولياء وفضلهم، ساق فيه عددا من الايات وثمان أحاديث، وأشار إلى أربع أحاديث أخرى سبقت في مواضع متفرقة، وذلك في آخر كتاب الدعوات فراجعه (دليل الفالحين).
وللإمام ابن علان تقسيم للخوارق للعادة آخر، وهو كالسابق الا أنه حذف الاستدراج، وأثبت المعونة وهي خارق للعادة يبدو على يدي بعض المؤمنين، كإنقاذ من مهلكة وتخليص من ورطة بوجه خارق للعادة (دليل الفالحين)، أقول وعليه فيكون ما حدث للغلام من قبيل المعونة، وتسميتها معونة أو كرامة أمر اصطلاحي، ولا مشاحة في الاصطلاح. قال الإمام الطحأوي (ولا نفضل أحدا من الأولياء على أحد من الانبياء عليهم السلام، ونقول نبي وأحد

أفضل من جميع الأولياء، ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من روأياتهم) شرح العقيدة الطحأوية.

وهناك بعض مسائل ينبغي فهمها في هذا الموضوع :

ا- إن الخارق للعادة إنما هو من عند الله أولا وأخيرا، ولذلك أخبر الانبياء أنهم لا يملكون ذلك.

قال العلامة علي بن أبي العز شارح الطحاوية: والكمال يرجع إلى ثلاثة: العلم والقدرة والغنى، وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال الا لله وحده، فإنه الذي أحاط بكل شيء علما، وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين، ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك إن اتبع الا ما يوحى إلي)، وكذلك قال نوح عليه السلام، وهو أول أولي العزم من الرسل، وهذا خاتم أولي العزم والرسل، وكلاهما تبرأ من ذلك، وهذا لأنهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب (يسألونك عن الساعة أيان مرساها)، وتارة بالتأثير (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا)، وتارة يعيبون عليهم الحاجات البشرية (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق)، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأنه لا يملك ذلك، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله، وجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الانواع.

ب- إن ما يجري من خوارق العادات على يد بعض العباد ليس لأجل كرامة العبد على ربه، وعدمها ليس لهوانه على ربه. قال شارح الطحأوية (وأما ما يبتلي به الله عبده من السر بخرق العادة أو بغيرها أو بالعز، فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه، وشقي بها قوم إذا عصوه (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن كلا)، ولهذا كان الناس في هذه الامور ثلاثة أقسام: قسم ترتفع درجتهم بخرق العادة، وقسم يتعرضون بها لعذاب الله، وقسم يكون في حقهم بمنزلة المباحات) شرح العقيدة الطحأوية.

ج- صاحب الكرامة غير مأمون العاقبة، فربما يتغير حاله ويعود إلى المعاصي وأسباب الشقاء، (كذا قال الإمام عبد القاهر البغدادي في تعداده للأصول التي اتفق عليها أهل السنة، الفرق بين الفرق للبغدادي).
د- قال الإمام ابن تيمية: ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها ضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي أيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولأية منه مستغنيا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك، لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولأيته، ولهذا كانت هذه الامور في التابعين أكثر منها في الصحابة، بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدي الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة (مجموعة فتأوى ابن تيمية).

ه- ينبغي ألا يخفى على المؤمن الفارق بين كرامات الأولياء، وخوارق العادات التي تظهر على يد العصاة، فهذه لها أسباب وتلك لها أسباب، وهؤلاء لهم علامات وأولئك لهم علامات. قال ابن تيمية: (وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الاحوال الشيطانية فروق متعددة، منها أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والاحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)، فالقول على الله بغير علم، والشرك، والظلم، والفواحش، قد حرمها الله تعالى ورسوله، فلا تكون سببا لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل تحصل بما يحبه الشيطان، وبالامور التي فيها شرك، كالاستغاثة بالمخلوقات، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهي من الاحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية) مجموعة الفتأوى.
و- ينبغي أن نسوق طرفا من الكرامات التي حدثت على أيدي بعض الصحابة والتابعين:

- خبيب بن عدي كان أسيرا عند المشركين بمكة، وكان يؤتى بعنب يأكله، وليس بمكة عنبة.

– عأمر بن فهيرة قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رفع، فرآه عمرو بن الطفيل وقد رفع، وقال عروة فيرون الملائكة رفعته.

– وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة، سمعت حسا على رأسها فرفعته، فإذا هو دلو معلق، فشربت منه حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها.

– وسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الاسد بأنه رسول رسول الله، فمشى معه الاسد حتى أوصله مقصده.

– ولما عذبت الزبيرة على الإسلام في الله، فأبت الا الإسلام، وذهب بصرها، قال المشركون أصاب بصرها اللات والعزى، قالت كلا والله، فرد الله عليها بصرها.

– وتغيب الحسن البصري عن الحجاج، فدخلوا عليه ست مرات، فدعا الله عز وجل فلم يروه، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتا.

– وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط.

– وكان إبراهيم التميمي يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئا، وخرج يمتار لأهله طعاما فلم يقدروا عليه، فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله، ففتحها فإذا هي حنطة حمراء، فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حبا متراكبا.

– وكان عتبة الغلام قد سأل ربه ثلاث خصال: صوتا حسنا، ودمعا غزيرا، وطعاما من غير تكلف، فكان إذا قرا بكى وأبكى، ودموعه جارية دهره، وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه. (هذه النقول من مجموعة الفتاوى).

2- لقد انطلق الغلام المؤمن يستخدم منة الله عليه لحل مشكلات الناس الصحية من أمراض وأسقام، وربطها بأمر الإيمان، فاتصل بالجماهير عن طريق فعل الخير والتعاون على البر والتقوى، فما أحوج الدعاة أن يعرفوا هذه القضية فتتخصص طائفة منهم في الاتصال المباشر بالجماهير، ومحاولة التأثير فيهم وحل مشكلاتهم، من خلال الانشطة الاجتماعية والمالية

والرياضية والمسجدية ... الخ، مع دعوة الناس إلى الالتزام بالإسلام فهما وتطبيقا، والذي فيه خيري الدنيا والآخرة، وإلى معأونة الدعاة في إقامة مجتمع الحق والخير والعدل.

3- على أن استثمار هذا المجال المهم يجب الا يطغى على مجالات الدعوة الأخرى، وبصفة خاصة تربية الافراد المتميزين، وبناء الصف القوي القادر على أعباء الجهاد وإقامة دعوة الإسلام، ولقد وجه الراهب الغلام إلى مجال، وبقي هو يعمل في مجال آخر. إن العمل الدعوي مجالاته متعددة، وأنشطته كثيرة، ولابد من مراعاة الأولويات، وهو باب مهم في فقه الدعوة، والبدأ بالاهم لا بالاسهل قاعدة من قواعد الدعوة، فلا يقدم العمل المفضول على الافضل، ولا العمل المهم على الاهم.

عن جابر بن زيد عن ابن عباس قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: علمني من غرائب العلم، قال: (وما صنعت في رأس العلم حتى تسأل عن غرائبه)، قال: وما رأس العلم، قال: (معرفة الله حق معرفته)، قال: وما معرفة الله حق معرفته، قال: (أن تعرفه بلا مثل ولا ند، وأحدا أحدا، ظاهرا باطنا، أولا آخرا، لا كفؤ له، فذلك معرفته حق معرفته) (رواه الإمام الربيع بن حبيب في مسنده الجامع الصحيح)، وفي رواية: اذهب فأحكم ما هنالك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم.

ومن الأولويات التي يجب مراعاتها على سبيل المثال :

بناء الصف داخليا من تربية عقيدية وسلوكية وأخلاقية وفكرية ثقافية وحركية وإدارية، يعتبر له أولوية أولى، وكذلك نشر الدعوة بين الناس (رجالا ونساء) بمفاهيمها الصحيحة، بفنونه وأساليبه المتنوعة، والتدريب المستمر للدعاة على أساليب وأنشطة الدعوة إلى الله له أولوية أيضا، لأن نشر الدعوة يعتبر باب الاتصال بالناس، وتوسيع قاعدة الدعاة، ، ورفع مستوى الوعي الصحيح بالإسلام، ويشمل نشر الدعوة العمل مع النساء، وتبليغ الدعوة إليهن، وتربية الصالحات منهن ليكن زوجات وأمهات صالحات، وقائمات على الانشطة والتخصصات العلمية المناسبة لهن، ومشاركات للرجال في الدعوة إلى الله وإقامة مجتمع الإسلام الصحيح، كما يشمل نشاط نشر الدعوة العمل مع الاشبال الصغار فتيانا وفتيات، فهم يمثلون مستقبل الإسلام المشرق بإذن الله.

ويأتي بعد هذين المجالين الرئيسيين مجالات أخرى هامة مثل بناء قاعدة من التربويين الإسلاميين واسعة للتأثير في الاجيال القادمة، من خلال التدريس في المدارس، وتربية أبنائنا وبناتنا على الإسلام وأخلاقه وسلوكياته، وكذلك بناء إعلام إسلامي جاد وعلمي ومتخصص، يساهم في رفع الوعي وتثقيف المجتمع ثقافة إسلامية وعامة صحيحة، والتسلية البريئة النظيفة، وكذلك العمل التخصصي في المهن المختلفة من الناحية الفنية والإسلامية، وكذلك مجال إعداد القوة المتنوعة الشاملة اللازمة لمواجهة أعداء الإسلام وحماية الدعوة، ومجال العمل السياسي الهادف يجعل الدعاة على صلة بالأحداث والافراد والجهات المختلفة، ويكسب الدعاة الخبرات المختلفة، والعلاقات المتنوعة، مع تثقيفهم ثقافة عميقة في السياسة الشرعية والفروق الكبيرة بينها وبين السياسة بمفهومها الغربي وأهدافها، والتي تؤدي إلى النضوج السياسي والقدرات الفاعلة، إلى آخر ذلك من المجالات المتنوعة الهامة، بل إننا نكاد نجزم بأن الدعاة إلى الله يجب أن يخوضوا (بتدرج وتوازن) في كل مجالات الحياة ودروبها، من بعد إحكام الأساسيات، ليكونوا مؤهلين لقيادة البشرية من جديد بإذن الله.

على أننا نؤكد أن الواجبات أكثر من الاوقات، والمجالات والاعمال أكبر من الطاقات المتاحة، فينبغي تحديد المجالات التي تسمح الطاقة بالدخول فيها، وتكون لها أولوية، ثم نتسع تدريجيا بحسب الطاقات الموجودة، والا فسنجد أنفسنا ندور في حلقات من الانشغال بأعباء أكبر بكثير من الطاقة، فيضعف الاداء والمستوى، وبالتالي لا نستطيع أن نخطط أو نبدع في أنشطتنا، أو نتقدم بالقدر المطلوب نحو تحقيق أهدافنا الكبرى، ونتحول إلى عمل روتيني بارد فاقد للحيوية والقدرة على التقدم.

4- كما أنه لابد من حسن توظيف الطاقات والقدرات الخاصة للأفراد في مكانها المناسب، فينشأ عن ذلك نوع من التخصص، ثم تستكمل الخبرات الموجودة بالدراسة العلمية الجادة في مجال التخصص.

5- وينبغي تنويع ممارسات الافراد من وقت لآخر، دون فقد مزية التخصص والخبرة، أو الاهتمام بعمل حوارات مستمرة متكررة على كل المستويات، تحت إشراف قيادي، حتى يتعرف العاملون في كل مجال على المجالات الأخرى وأنشطتها ومشاكلها، بل والمشاركة في حلها أحيانا إن

أمكن، كما يجب التحديد الدقيق لمهمات وحدود كل مجال، دفعا للخلل الاداري الناتج عن التدأخل غير الصحيح.
وقد يظهر شيء من تعصب بعض العاملين لمجال تخصصهم، والرغبة في إعطائه أهمية أكبر من غيره، لكن الادارة الجيدة الرشيدة لمثل هذه الحوارات، والاشراف القيادي الدقيق، سيعينان على تلافي هذه الظاهرة، التي ربما تؤدي، إن تركت وأهملت، إلى نشوء نوع من عدم وحدة الفهم، وربما يمتد ليصبح خلافا فكريا بمرور الزمن، فيهدد وحدة الفهم والعمل والاخوة، بل قد يهدد بالانقسام والتفسخ.
6- ومن الملاحظ أن الغلام قد ربط بين عمله الخيري للناس، وقضية الإيمان والعقيدة الصحيحة، فكان يشترط الإيمان قبل أن يدعو الله للمريض، ثم يعرض دعوته، فإن قبل المريض دعا الله له فشفاه، كما حدث مع جليس الملك.

وهذا درس ينبغي أن يتعلمه الدعاة إلى الله، لأن الأمر ليس مقتصرا على خدمة الجماهير والاتصال بهم، بل مع ذلك ربط هذه الجماهير بالإيمان بدين الله من خلال هذه الخدمات، وكذلك طرح القضأيا المختلفة من منظور أيماني، وكذلك الأحداث اليومية والمشكلات العامة، فتنشأ قاعدة من المؤمنين الموالين للدعوة بحق، ثم بعد ذلك تتم تربية المقبلين المتحمسين للدعوة والعمل لها، وأصحاب القدرات المتميزة، فتتقدم الدعوة في تحقيق هدفيها الرئيسيين في هذه المرحلة وهما : أيجاد ركائز وبناء الصف، ونشر الوعي الإسلامي. وبدون معرفة هذين الهدفين بوضوح، واستحضارهما باستمرار، ومراجعة نتائج الاعمال التي نؤديها على أساسهما، فإننا قد نبذل جهدا وفيرا، ونشغل طاقات كثيرة، دون الحصول على مردود حقيقي في اتجاه أهداف الدعوة.
7- ويظهر من هذه الفقرة مع الفقرتين القادمتين في الحديث: أن الملك لم يكون يدري شيئا عن انتشار هذا الدين الجديد، وربما يكون قد نقل إليه كلام مبهم عن الغلام تلميذ الساحر، الذي سبق وأنقذ الناس من الدابة، والذي ها هو الان قد أمده الله بعطاء من عنده، ومعونة بها يشفي المرضى من سائر الادواء، فلم يعر الملك الأمر التفاتا، ولم تتفجر قضية الدعوة الجديدة الا عند حديثه مع الجليس بعد أن رد الله إليه بصره كما سيأتي.

وهذا الأمر يلفت النظر إلى أن العمل العام يجب أن يركز على المفاهيم العقيدية الصحيحة، وفهم الدين والالتزام به دون تعجل للصدام، وبصفة خاصة في المراحل الأولى من الدعوة، وقبل أن يشتد عودها، لأن المواجهة والتحدي المبكرين يسببان عنف النظام، خوفا على بقائه واستمراره، خاصة مع ضعف الدعوة وعدم قدرتها على حمأية نفسها في هذه المرحلة، فتكون المصلحة الحقيقية في توسيع القاعدة، وتربية الخواص من المؤمنين بهدوء وقوة، حتى تقوى الدعوة وتصبح قادرة على المواجهة، فحينئذ يجب عليها الجهاد لإعادة حكم الله في الارض، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الاديان إلى عدل الإسلام، غير عابئة بالدماء والتضحيات التي هي جزء أساسي من الدعوة والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

8- والناس عند الحاجة أو المرض أو الظروف المتعسرة يكونون أقرب إلى تلقي الدعوة وقبولها، والاستجابة لها، منهم في أي وقت آخر (إذا أحسن الداعون دعوتهم)، وهذا ما فعله الغلام، بالاستفادة من رغبة الناس في الشفاء، فربط بين الشفاء والعقيدة والإيمان، وأحسن استغلال استعداد الناس للاستجابة.

وهذا ما ينبغي أن يتعلم الدعاة منه درسا ويطبقوه، بأن يطرقوا الحديد وهو سأخن، ويستفيدوا من المواقف المختلفة، ولعل في قصة يوسف عليه السلام في السجن دليلا على ما نقول، إذ أنه بعد سؤال الرجلين عن تأويل رؤيتيهما طرح أولا معاني العقيدة بوضوح وعمق، بعد أن شوقهما ببيان قدرته على التأويل، ثم في النهاية أول الرؤيتين بكلام موجز مختصر لا يصل إلى ثلث كلامه في الإيمان والدعوة.

9- ومن طبائع البشر أنه إذا أراد إنسان شيئا ما فإنه يتودد إلى من عنده حاجته ويتقرب إليه، سواء بالهدأيا والعطأيا أو أي مزية مادية أو معنوية للحصول على ما يريد، الا من رحم الله، وهذا ما فعله جليس الملك مع الغلام (فأتاه بهدأيا كثيرة فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني)، والداعية صاحب الرسالة لا يقبل أجرا من أحد، بل يزهد في الدنيا الزائلة مقتديا بالانبياء والمصلحين من قبله (قل لا أسألكم عليه أجرا)، (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن اجري الا على الله).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس) (رواه ابن ماجه وغيره وحسنه النووي).
إن المدعو حين يرى أن الداعي لا يتطلع إلى أجر، ولا يطمح إلى أمر من أمور الدنيا، ولا يسأله شيئا، يشعر بصدقه، ويكون أقرب إلى الاستجابة له والثقة فيه، فعلى الدعاة أن يكونوا أصحاب اليد العليا مع الناس، وإن ضاق بهم الحال، ولا يطلبوا منهم شيئا، ولو كان هينا، ليعلم الناس حقيقة الدعوة والدعاة، وأنهم لا يرغبون في منصب أو مال أو جاه، وهذه خطوة في غرس الاستعداد لقبول الدعوة دون خوف أو شبهة، مثل ما فعل الغلام مع الجليس، حيث لم يلتفت إلى عرض الجليس، وقام بعرض قضية الإيمان والعقيدة الحقة حتى آمن الجليس بالله وحده، ودخل زمرة المؤمنين.
10- ولم يفتن الغلام بمنة الله عليه فينسب الأمر إلى نفسه، ولو من باب التأويل، إنما وضح حقيقة الأمر فقال (إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله تعالى)، فنقل المسألة من طلب الشفاء من البشر إلى رد الأمر إلى الفاعل الحقيقي وطلب الشفاء منه وهو الله سبحانه وتعالى، فالذي خلق، والذي يحي ويميت، والذي يشفي ويرزق، هو الله الواحد الأحد القادر القوي، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

إن على الدعاة إذا رزق أحدهم قدرة خاصة، أو علما، أو ذكاء، ... الخ، الا يغتر به فيحبط عمله في الدنيا والآخرة، بل يتقي الله ويرجع إلى الله ويتواضع لله والخلق. إن الشيطان يسعى جاهدا ليوهم الانسان أن له حالا ومقاما في الدعوة مثلا حتى يوقعه في دائرة الغرور، والكبر، فتكون الفتنة والعياذ بالله.
قال الاستاذ الرأشد : (والمعجب مفضوح ولا شك بفضيحتين: بفضيحة الزلل والسقوط أرضا، إذ ما زال القدماء يقولون عن فلان: إن العجب أخذ برجله فزل. كمن يهمل النظر في السوق إلى موضع قدمه، فيزلق بقشر، أو يعثر بحجر، فمن راث لحاله، وشامت، ويقوم متهما تأتيه النصائح من كل جانب، وما هو بحاجة إليها بعد ارتجاج عظمه، أو يغالي يطلب لنفسه السعر العالي، فيفضحه الشافعي وينادي في السوق أن (من سامى بنفسه فوق ما يساوي رده الله تعالى إلى قيمته) (العوائق).

إنما على الداعي أن يحمد الله تعالى على مننه، ويخر ساجدا لله، ويسأله التثبيت وحسن الخاتمة، وعليه أن يتواضع مع أخوانه، فلا يشمخ عليهم أو يتعالى.
ولقد عرّف سفيان الثوري العجب فقال: إعجابك بنفسك حتى يخيل إليك أنك أفضل من أخ لك، وعسى الا تصيب من العمل مثل الذي يصيب، ولعله أن يكون هو أورع منك عما حرّم الله، وأزكى منك عملا (العوائق).
وليعلم الاخ الداعي أن القيمة الكبرى إنما هي في الصلة بالله، وقبول الله لهذه الاعمال، وليعرف حقيقة نفسه الضعيفة، (وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء) (أخرجه مسلم وغيره)، وليستغفر ربه إنه كان غفارا.
11- وعلى الداعي إلى الله أن يحسن عرض القضايا على الناس، ويتقن الحوار معهم، ويجيد استخدام قدراته التي من الله عليه بها في التأثير في الناس وجذبهم لدعوة الحق والخير، وتوضيح الحقائق بيسر، وعدم الحدة في المناقشة، وإنما بذل الجهد في تحبيبهم في الالتزام بالإسلام، وقد ورد في الحديث (إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله، جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا أخذ بحجزكم عن النار وهم يقتحمون فيها) متفق عليه.

إن مهمة الداعية ليست هي إقامة الحجة على الناس، إنما هي تحبيب الناس في الإيمان، وتقريبهم من الله، بما يمكنه من وسائل وإمكانات، كيف نتحدث مع الناس على أختلاف فهومهم، ومشاربهم، وطبائعهم، وأختلاف السن، والثقافة، والبيئة، والمعرفة الدينية، والاهتمامات ...الخ، وكيف نبين حكم الإسلام في القضأيا المختلفة دون تكلف أو تنطع، ودون ترخص. كيف نستمع وكيف نجيب، ومتى نتكلم ومتى نصمت، وما أفضل الالفاظ للتعبير عن معنى ما. سئل الإمام أحمد بن حنبل عن محمد بن معأوية، وهو معدود في الكذابين، فقال: نعم الرجل يحي بن معين، وفي مدح البعض مندوحة عن القدح في الآخرين، وقيل في مجلسه عن رجل من الكذابين هو كذاب، فقال الإمام: يا هذا قل حديثه ليس بشيء، وألف اسحق بن بهلول كتابا سماه (الاختلاف) فقال أحمد: سمه كتاب السعة.

12- ويجدر بنا أن نشير إلى أهمية الدعاء في مسيرة المسلم، كما كانت أهميته في حياة الغلام الداعية، في طريق دعوته إلى الله عز وجل.
إن العبد ضعيف، وإن قدرته محدودة، ومن هنا فهو في حاجة إلى قوة أكبر يركن إليها، وبخاصة عند الشدائد، وقد لجأ الانبياء إلى الدعاء، فقال نوح عليه السلام (إني مغلوب فانتصر)، وقال لوط عليه السلام (رب إن قومي كذبون)، وقال إبراهيم عليه السلام (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا)، وقال موسى وهارون عليهما السلام (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما طرد من الطائف (اللهم إليك أشكوا ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين)، وفي الغار (إن الله معنا)، وفي بدر (اللهم نصرك الذي وعدتني، الله أحنهم الغداة، اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الارض بعد اليوم). وهكذا الدعاة إلى الله في كل عصر، شعارهم الدعاء، ولهجهم الذكر، وديدنهم الاستغفار، فقال أهل الكهف (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا)، وقال مؤمن آل فرعون (وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد)، والمؤمنون في أحد (وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين).
والصحابة في معاركهم أثر عنهم الدعاء واللجوء إلى الله أكثر من اللجوء إلى القوة والعدة، وإن كان الاخذ بها وإعدادها واجب شرعي.
اللهم إنا ضعفاء فقوّنا في رضاك، وخذ إلى الخير بنواصينا، واجعل الإسلام منتهى رضانا، اللهم آمين.

10) قوله (فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال الملك: من رد عليك بصرك، قال: ربي، قال أولك رب غيري، قال ربي وربك الله)، وفي رواية المسند (فقال: ربي، قال: أنا؟، قال: لا ولكن ربي وربك الله، قال: لك رب غيري، قال: نعم).

1- ويحضر الجليس مجلس الملك كما كان يفعل، فلم يعتزل وإنما حضر واثقا بنفسه وبالحق الذي معه، وهو يعرف أن ارتداد بصره إليه سيثير حوارا الله أعلم بعاقبته. إن المؤمن ينبغي الا يخشى مجالس الناس مهما كان حالهم، إذ الحق الذي يحمله أقوى وأعلى من باطلهم ووهمهم، وواجب الدعوة وبيان الحق يحتم ذلك عليه.

ولا يمنع من حضور مجالس الناس لدعوتهم الا أمور منها:

ا- أن يكون حديث عهد بالدعوة، وبفهم الإسلام، فيخشى عليه من التأثر أو إثارة الشبهات لديه.

ب- أن يكون في المجلس من الاثام الشرعية ما يمنع قعوده معهم.

ج- أن يكون به ضعف بحيث يخشى عليه من التأثر بسلوك الآخرين بدلا من التأثير فيهم.

فعلى الدعاة العاملين في مجال دعوة الناس، وهم من رجال العامة، أن يغشوا مجالس الناس ويدعوهم إلى الإسلام الصحيح، فمن استجاب منهم فلعله أن يرتقي في سلم الالتزام حتى يبلغ درجة الدعاة وهو ما نرجوه، وإن اكتفى بتأييد الدعاة فيكتفى منه بذلك، وله في ميزاننا قدر.

والمتصدي للعمل الدعوي الذي يغشى مجالس الناس يجب أن يحوز الصفات المناسبة لأداء هذه المهمة، سواء منها الاخلاقية أو العلمية أو العملية، فيكون لين الجانب، صبورا، فاهما عميق الفهم، قادرا على الحوار والمناقشة، والاقناع والاقتناع أيضا، قادرا على التحليل ... الخ، فلا ينبغي الاستعجال بدفع الافراد في مثل هذه الميادين حتى تكتمل تربيتهم، ويكونوا صالحين لهذا العمل، وهذا بالتأكيد ينسحب على كل المجالات الدعوية، والا فإن النتيجة ستكون عكس المطلوب.

2- إن رد الملك على الجليس صورة مكرورة من مواقف الطغاة في الازمان المختلفة، في تصديق ادعاءاتهم وكذبهم البيّن فيما ادعوه من الربوبية، وعدم حيائهم من الظهور البيّن لهذا الكذب.

فالملك كان يعلم أنه لم يستطع أن يشفي الجليس ولا غيره من الناس، وأن هناك من شفاه وله قدرة على ذلك، فبدلا من استخدام أسلوب ذكي وسياسي

مع الجليس مثل: ومن ربك؟ وأين كيف شفاك؟ وما هذا الدين الجديد الذي تدين به، أخبرني عنه لعلي أجد فيه حقا فاتبعه، مثل ما يفعل شياطين الانس اليوم، فينخدع بهم كثير من السذج، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك، وإنما أصر على ادعاء الربوبية كذبا في صلف وعناد.
وصيغة (أو لك رب غيري) تحمل في طياتها وعيدا وتهديدا للجليس لعله يتراجع فيفسر كلامه تفسيرا يعجب الملك، كأن يقول له: إنما كنت أقصدك أنت، أو ما يشبه ذلك، من مواقف النفاق التي نراها في أيامنا هذه كثيرا مشاهدة وقراءة، وقد فتح له الملك هذا الباب بقوله: أنا؟، كما في رواية المسند، فربما يقول نعم وينطلق في تعظيمه، و التحدث بنعمه على الرعية، وإن لم يفعل يبدأ التهديد ثم يتصاعد حتى يصل إلى الايذاء والتعذيب .... الخ.
3- وينهي الجليس المؤمن الحوار بالجملة القاطعة النهائية الفاصلة (ربي وربك الله)، إن هذا المؤمن لم يداهن، أو يحأول النجاة، أو الاعتذار عن الاجابة، لأن المناقشة وصلت إلى طريق مسدود.

فقال له نعم لي رب غيرك، وهذا الرب هو ربك أنت أيضا شئت أم أبيت، فأنت بشر مثل خلق الله، الا أنك تجبرت وطغيت وكذبت، ثم صدقت نفسك واستمرأت الكذب. ثلاث كلمات من الجليس وقعت كالصاعقة على الملك وحاشيته في مجلسه، والدين الجديد يعلن على الملأ في أخطر مجلس في الدولة، وأمام الطاغية المتأله، والدرس هنا ان الجليس كان يعلم ولا شك أن الملك لن يتركه إن أقر بدينه الجديد، وأنه سيقع في دائرة من الابتلاء لا يعلم عواقبها الا الله، الا أنه آثر الله على سواه، والآخرة على الدنيا، والحق على الباطل، فصدع بالحق، ولم تأخذه في الله لومة لائم.
4- ومن تتمة الحديث عن موضوع السرية والعلنية الذي تناولناه في شرح قوله (فإن ابتليت وفلا تدل علي) موضوع استخدام المداراة والتعريض والكذب على الأعداء للضرورة ومواقف المواجهة والصدع بالحق، متى نستخدم هذا الأسلوب، ومتى نقف هذا الموقف.
لقد تكلم العلماء عن التعارض الظاهري بين نصين من السنة الشريفة (... إن عادوا فعد) (ذكره النيسابوري في أسباب النزول، والقرطبي في التفسير، والفتوحات الإلهية)، (... هذا أخذ بالعزيمة وذاك أخذ بالرخصة) (تفسير القرطبي، الفتوحات الإلهية، الإصابة، الاستيعاب بهامش الإصابة)، فكان

مجمل رأيهم أن الموقف الأول كان موقفا عائليا محدودا لتعذيب أحد أبناء العائلة الذين أسلموا، كما كانت الدعوة يومئذ في مرحلة بداية وضعف، وكان من المهم والضروري الحفاظ على الأفراد لبناء الأمة المنشودة، بينما كان الموقف الثاني لحبيب بن زيد أمام مسيلمة الكذاب ومن معه والكثير من الناس، فهي مواجهة عامة علنية بين الحق والباطل، والإسلام حينئذ قائم وممكن له في الأرض، فكانت العزيمة في الموقف الأول هي الحفاظ على أفراد الجماعة المسلمة لمصلحة الإسلام، وكانت العزيمة في الموقف الثاني هي الإصرار على الحق وتحدي الباطل ورفضه، مما ينتج عنه تثبيت لأهل الحق، فيزدادوا يقينا إلى يقينهم، ورغبة في البذل لهذا الدين، وتخذيل لأهل الباطل المجتمعين حين يرون رجلا يقطع جسمه قطعة قطعة وهو يرفض التنازل عن الحق الذي معه، فلا تعارض بين النصين أو الموقفين. وهكذا كان موقف الجليس موقف صدع بالحق أمام الملك وحاشيته، بينما لم يحدث مثل هذا الموقف في مراحل سابقة من الراهب أو من معه.

إن علينا أن نعلم أن المواقف تقدر بقدرها، فما يصلح ويفيد الدعوة في موقف قد لا يصلح ولا يفيد في موقف آخر، كما سبق وذكرنا المقارنة بين موقف المسلمين مما حدث لسمية رضي الله عنها، وموقفهم من المرأة التي كشف اليهودي سوأتها.
نعم إن القياس ليس يسيرا، والأهواء قد تدفع إلى جبن وتخاذل، أو إلى تهور واندفاع، ولكننا لا نملك إلا أن نقر بالحق، ونحاول أن نجتهد في القياس والتقدير بناء على الضوابط الشرعية المعتبرة، ثم يفعل الله بنا ما يشاء.

11) قوله (فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله تعالى، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب).

وفي مسند الإمام أحمد **(... قال: ما أشفي أنا أحدا، ما يشفي غير الله عز وجل، قال: أنا؟، قال: لا، قال: أو لك رب غيري؟، قال: نعم ربي وربك الله ...).**

1- هكذا بدون محاكمة عادلة، أو غير عادلة، أخذه وألقاه إلى زبانيته، ولكل جبار زبانية، لا عقول لهم ولا قلوب، وظيفتهم تعذيب الناس وانتزاع الاعترافات منهم، الصادقة وغير الصادقة، أو المملاة من شدة التعذيب وهوله، ألقاه إليهم ليقوموا بواجبهم، ألقاه إلى كلابه الجائعة التي تتلذذ بصرخات الألم، وتسبح بحمد ملكها، فظلوا يعذبون الجليس بأنواع العذاب المختلفة، وقد وصلت شياطين الإنس في زماننا هذا ، إلى ما لا يتصور من الوحشية والإجرام، مما نقرأ ونسمع عنه كثيرا، ولفظ لم يزل يفيد الاستمرار وطول المدة.
ولعل التهمة الموجهة إليه هي التآمر على النظام القائم، ومحاولة قلبه، كما في كل العصور، أي تآمر؟ وأي إرهاب؟، ومن الذي قلب الأمور تماما، حكما، وعقيدة، ومنطقا، وعدلا، أهو الجليس الذي لم يقل إلا ربي وربك الله، فاستحق هذه التهم، وهذا العذاب، أم هو الملك المتأله، الكافر، الجبار، الطاغية. إنها الحقيقة المرة، والمأساة المتكررة على مدى الزمان والمكان.
2- ومن شدة العذاب والألم لم يتحمل الجليس، فدل على الغلام، الذي كان سببا في هدايته، (فجيء بالغلام) سواء بالاعتقال من بيته قبيل الفجر، أو بالأخذ من الشارع في وضح النهار على أعين الناس، ولم لا، أليس متآمرا وإرهابيا، وإن كان صغير السن ولم يبدر منه ما يوحي بذلك.
المهم أنه جيء به إلى الملك الذي يعرف صغر سن الغلام، وكذلك شهرته بين الناس من يوم الدابة، ثم من أمر إشفاء الناس من الأمراض، فأراد أن يستقطبه، ويقربه، ويعرف منه الحقائق ثم يستفيد بسمعته بين الناس إن استجاب له، فقال له (أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل)، يخاطبه بالعاطفة، ثم ينسب ما حدث إلى السحر، والملك يظن أنه صاحب الفضل في إرسال الغلام إلى الساحر ليتعلم منه، ولو سارت الأمور كما يهوى الملك، لأصبح الغلام ساحر الملك ومستشاره المؤتمن، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، إذ وقف الغلام صادعا بالحق، وأعلن أنه لا

يشفي أحدا، ثم أعلن عقيدته الحقة بقوله (إنما يشفي الله تعالى)، متحديا الملك وأعوانه.
ومرة أخرى ما أن يعلن أهل الحق حقهم وعقيدتهم حتى يجن أهل الباطل وينقضوا على حملة العقيدة، كالحيوانات المسعورة، ليفتنوهم عن دينهم، بالإيذاء والتعذيب ما داموا قد تركوا دين الملك (الإله المزعوم)، وصدق الله العظيم (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)، ثم يأخذ الزبانية الغلام ليفعلوا به ما فعلوا بالجليس، وكانت النتيجة أيضا أن دل الغلام على الراهب شيخه وأستاذه، والذي أمره من قبل ألا يدل عليه، ولكن العذاب له درجات لا يتحملها البشر في كثير من الأحيان.

3- إن الراهب قد خطط وأخذ بأسباب الحيطة والحذر والكتمان، ولكن قدر الله غالب، فصارت الدعوة إلى نهايات لم يكن يخطط لها أو يرجوها، ولكنه الخير كل الخير للجليس والغلام والراهب والمؤمنون، فهو تقدير الله العليم الحكيم من فوق سبع سماوات.

إن هذا الأمر يدعونا إلى الاهتمام بالأخذ بأسباب الحذر والكتمان، والحفاظ على الدعوة بكل الوسائل الصحيحة شرعا، ثم التوكل على الله، ونرضى بقدره، ونعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. ولا يقبل بحال ترك أسباب الحفاظ على الدعوة، أو الاعتماد عليها كلية مع نسيان مسبب الأسباب ومجريها، القوي المتين.
إن الابتلاء سنة من سنن الله في الدعوات، وهذا الذي حدث للجليس والغلام جزء من الذي علمه الراهب للغلام، ليستعد لمرحلته القادمة. إن الثبات في هذه المواقف هو في الحفاظ على العقيدة والمبدأ، ثم على أسرار العمل الذي يقوم به، فإن أفلتت منه الثانية، فلا تفلتن الأولى، لأن في ضياعها ضياع الدنيا والآخرة (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان).

4- وعلى الدعاة أن يعذر بعضهم بعضا إن لم يتحمل فاضطر أن يذكر ما يؤذي إخوانه، إذ لو كانوا مكانه فلربما ما تحملوا ما تحمل قبل أن يفضي إلى الشياطين.
إن الشيطان يحاول في فترة المحنة والفتنة أن يجتهد في الإيقاع بين أفراد الفئة المؤمنة المجاهدة بطرق شتى منها هذا الأمر، فعليهم أن يتنبهوا ويعلموا أن هذا هو قدر الله الذي قدره لعباده، وأن الذي ثبت مرة بتثبيت الله له، قد

لا يثبت الأخرى، والمهم أن يخرجوا كالبنيان المرصوص، لا يلوم أحدهم الآخر، أو ينظر إليه من عل، أو يحقره لأي سبب، فإن الأخوة منحة ربانية لا يملكها إلا الله (لو أنفقت ما الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم).
ولم يرد في الحديث أي إنكار على الجليس أو الغلام، بل تلقى كل من الثلاثة مصيره الذي قدره الله له بثبات، ثم التقوا في النهاية أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

12) قوله (فجيء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمئشار فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه).

المئشار : ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء، وروي المنشار بالنون وهما لغتان صحيحتان.
مفرق رأسه : بفتح الميم وكسر الراء، مكان فرق الشعر أو وسط الرأس.
1- ولما جيء بالراهب العابد المسالم الذي لم يقتل أحدا، ولم يفعل شيئا سوى الدعوة إلى الله، قيل له ارجع عن دينك، بأمر الملك لتحفظ حياتك، هذا ما نريده منك فقط، بل لعلك إن فعلت وثبت صدقك وإخلاصك للملك جعلناك وزيرا (للأوقاف) وأغدقنا عليك.
نعم إن كل ما حدث وسيحدث ليس له إلا سبب واحد وهو الإيمان برب العالمين، وصدق الله (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)، (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل)، (وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا).
إن المعركة مع الباطل معركة عقيدة وفقط، وليست معركة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو غير ذلك.
وبثقة المؤمن الذي وضع في موضع مواجهة مع الباطل، أبى الراهب أن يتخلى عن الحق الذي معه مهما كان الثمن، فما قيمة الحياة، لقد وعده ربه

جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فهل تستوي هذه بتلك؟ لا والله لا تستويان.
ومن الذي يتهم، ومن الذي يحقق، ومن الذي يحكم ويحدد العقوبة، ومن الذي ينفذها، إن الملك هو الخصم والمحقق والقاضي والجلاد في آن واحد، فما عقوبة من يدين بدين الحق فيعبد الله وحده لا الملك؟. في جسد
إن الملك الطاغية يأمر بنشره بالمنشار، فليست العقوبة هي القتل بالسيف أو الشنق، يا الله، هل يتصور أحدنا كيف تكون هذه الميتة، حين ينطلق المنشار ذهابا وإيابافوق رأس الإنسان المكتوف، فيتفجر الدم من اللحم، ثم يسمع صوت المنشار في العظم عاليا مختلطا بصوت الصراخ، حتى يخبو بعد قليل صوت هذا الصراخ، ولا يبقى إلا صوت المنشار في جسد ميت، والإنسان لا يتحمل أن يقطع المنشار رأسه عمقا أكبر من عقلة أصبع، ويستمر النشر حتى يسقط شقا الجسد على الأرض، والملك الطاغية وحاشيته يتلذذون بمنظر نشر المؤمنين واحدا بعد الآخر، وهم يصطرخون ويجأرون إلى الله.
أي طرب لسماع صرخات المعذبين، وأي استمتاع برؤية دماء المسلمين تثج من عروقهم ثجا، وأي جلادين هؤلاء؟، إن أشر الحيوانات وأعنفها لتأبى أن ينسب إليها هؤلاء الملاعين شياطين الإنس والجن.
وماذا يملك المؤمنون في هذا الموقف إلا أن يقولوا (حسبنا الله ونعم الوكيل)، (اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم احدا)، (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا).

2- إن الله يثبت الذين آمنوا : لقد ثبت الله الراهب على إيمانه، وثبت جليس الملك على إيمانه، وتحملا من الآلام ما لا يعلمها إلا الله في سبيل هذا الإيمان. إن موكب الإيمان على مر العصور مليء بهذه الصور العظيمة من المؤمنين، الذين ثبتهم الله عز وجل في مواطن الجهاد، والمحن، والفتن، ومن هذه النماذج في صدر الإسلام بلال رضي الله عنه.
قال ابن كثير (كان بلال مولى أبي بكر لبعض بني جمح مولدا من مولديهم، وهو بلال بن رباح، واسم أمه حمامة، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر

بمحمد صلى الله عليه وسلم وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك أحد أحد. قال ابن اسحق فحدثني هشام بن عروة عن أبيه قال: كان ورقة يمر به وهو يعذب لذلك وهو يقول: أحد أحد والله يا بلال، ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بني جمح فيقول: أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخنه حنانا) السيرة النبوية لابن كثير.

ومنها خبيب بن عدي رضي الله عنه: حينما أسره عضل والقارة هو وزيد بن الدثنة، وباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رؤوسهما يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونا، ثم أجمعوا قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال: دعوني حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا أن ما بي جزع لزدت، ثم قال (اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم احدا، ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حزلي وألبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدي العداوة جاهد علىّ لأني في وثاق بمضيع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي فقد بضعوا لحمي وقد ياس مطمعي
وقد خيروني الكفر والموت دونه فقد زرفت عيناي من غير مجزع
وما بي حذار الموت إني لميت وإن إلى ربي إيابي ومرجعي
ولست أبالي حين أقتل مسلماعلى أي شق كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع
فلست بمبد للعدو تخشعا ولا جزعا إني إلى الله مرجعي

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمدا عندنا تضرب عنقه وأنك في أهلك؟، قال: لا والله ما يسرني أني في أهلي، وأن محمدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه .... ثم صلبوا خبيبا ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري فاحتمله بجذعه ليلا فذهب به فدفنه (زاد المعاد).

ومنها حبيب بن زيد مع مسيلمة الكذاب والذي قطع جسده قطعا قطعا في سبيل الله، فلم تلن له قناة، ولم يقر الكافر الكذاب على زعمه أنه نبي (الاستيعاب باب حبيب بهامش الإصابة).

وغير ذلك من المواقف العديدة التي لا يعلمها إلا الله، منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا، ثم ،لى قيام الساعة، إذ أن هذه هي سنة الله في خلقه.
إن هذه الصور من الثبات لهي أسمى وأعلى صور الشهادة في سبيل الله، والثبات على الحق، ولا يصل إنسان إليها بغير أن يبيع نفسه وماله لله سبحانه وتعالى، ويستعين بالله وحده، ويذكره، ويدعوه آناء الليل وأطراف النهار، سائلا الله أن يجعله من عباده الصالحين، وأن يمن عليه بالإيمان واليقين والثبات على الحق، والشهادة في سبيل الله، ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين في الفردوس الأعلى.

دروس دعوية :

1- إن من الواجب أن يفهم أصحاب الدعوة إلى الله طبيعة معركتهم مع الباطل وأهله، ومع أعداء الله، فإن هؤلاء يحاولون أن يميعوا القضية خاصة في الأزمان المعاصرة.
لذا وجب أن نفهم (إنها قضية عقيدة ومعركة عقيدة، وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدوا لهم، فإنه لا يعاديهم لشيء إلا لهذه العقيدة (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)، ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع، وقد يحاول أعداء المؤمنين أن يرفعوا للمعركة راية غير راية العقيدة، راية سياسية أو اقتصادية أو عنصرية، كي يموهوا على المؤمنين حقيقة المعركة، ويطفئوا في أرواحهم شعلة العقيدة، فمن واجب المؤمنين ألا يخدعوا، ومن واجبهم أن يدركوا أن هذا تمويه لغرض مبيت، وأن الذي يغير راية المعركة إنما يريد أن يخدعهم عن سلاح النصر الحقيقي فيها، النصر في أي صورة من الصور، سواء جاء في صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الأخدود، أو في الهيمنة الناشئة من الانطلاق الروحي كما حدث للجيل الأول من المسلمين) المعالم.
2- ووضوح الرؤية للدعاة أمر أساسي وهام، كي لا تختلط عليهم الأوراق في أي مرحلة من مراحل العمل والجهاد (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين).
وتأمل ما قاله سيد قطب رحمه الله في الظلال عن هذه الآية (فهو شأن عجيب ... إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة، والحركة بهذه العقيدة، إن هذا المنهج لا يعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب، إنما يعنى ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين

المجرمين أيضا، إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق، إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح، واستبانة سبيل المجرمين، هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات، ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم، فهما صفحتان متقابلتان وطريقان مفترقان، ولابد من وضوح الألوان والخطوط، ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية من تحديد وتعريف سبيل المؤمنين، وتحديد وتعريف سبيل المجرمين، ووضع العنوان المميز للمؤمنين، ووضع العنوان المميز للمجرمين، في عالم الواقع لا في عالم النظريات.

إن أشق ما تعانيه الحركات الإسلامية اليوم هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله ومدلول الإسلام في جانب، وبمدلول الشرك والجاهلية في الجانب الآخر، وأشق ما تعانيه هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين المجرمين، واختلاط الشارات والعناوين، والتباس الأسماء والصفات، والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق.

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة، فيعكفون عليها توسيعا وتمييعا وتخليطا، حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام، تهمة تكفير المسلمين، ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر المرجع فيه لعرف الناس واصطلاحهم، لا إلى قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم، هذه هي المشقة الكبرى، وهي كذلك العقبة الأولى التي لابد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل) الظلال.

3- إن الملك ومن معه لم يهتموا برد فعل الشعب المسكين تجاه قتل هؤلاء الأبرار الأبرياء، الراهب العابد المسالم، والجليس الذي كان بالأمس من الحاشية والمقربين، وهو اليوم قد شق شقان بالمنشار.

والإعلام الرسمي الضخم موجود، والتلفيقات والتهم وأجهزة التحقيق الخاصة، والبيانات الرسمية، ومحاكم التفتيش، كل ذلك أيضا موجود ليقنع الناس بيقظة الأمن الهمام، الذي أنقذ البلاد من كارثة كبرى، والذي يستحق الثناء والأوسمة، ولا ننسى أيضا التهديد المستتر، والعلني أحيانا، بأن من

يتعاطف أو يعين أحدا من هؤلاء، أو يعلم ولا يبلغ، أو حتى يعجب بفكرهم، سيعرض نفسه للوقوع تحت طائلة القانون.
فيؤول الأمر إلى رضوخ الشعب وسكوته، وتصديقه ولو ظاهريا بالموقف الرسمي، ثم بتراكم القصص والمواقف، إضافة إلى إشغال الناس بلقمة العيش، واتباع سياسة التجويع والضوائق الاقتصادية، كل هذا يجعل السلبية والخوف صفتين ملازمتين لهذا الشعب، فيسهل إذلاله، وخداعه، وتسييره كما يهوى الملك ووزراؤه.

13) قوله **(ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم به ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى).**

ذروة الجبل : أعلاه، قال في مختار الصحاح : ذرا الشيء أعاليه، الواحدة : ذروة.
فرجف : أي تحرك بهم واضطرب.
قرقور : سفينة صغيرة وقيل كبيرة.
فانكفأت : كفأه كمنعه : صرفه وكبّه وقلبه، فمعناها: انقلبت وانكبت. (المصباح المنير والقاموس المحيط ومختار الصحاح).

1- ونلاحظ في هذه الفقرة أن الملك لم يستخدم الأسلوب الذي استخدمه مع الراهب والجليس، ونظن أن من أسباب ذلك ما يلي :

ا- حداثة سن الغلام مما يحتمل إحداث تعاطف جماهيري كبير معه إذا ما قتل بنفس الطريقة، بالإضافة إلى صعوبة تصديق التهم الممكن توجيهها أو تلفيقها له، بخلاف حالة الراهب والجليس.

ب- شهرة الغلام بين الناس الذين شهدوا حادثة الدابة، وقالوا: لقد هذا الغالم علما لم يعلمه أحد.

ج- شهرة الغلام بين الناس بفعل الخير، وشفاء المرضى بإذن الله، مما يحتمل التعلق والحب له بين هؤلاء الناس.

د- الطمع في أن ينثني الغلام عن رأيه بعد رؤيته لما حدث للراهب والجليس، وأنه لا فائدة في معاندة الملك، وبالتالي تنتقل هذه القدرة الخاصة إلى خدمة الملك ونظامه وسحره، فتوطد أركان ملكه.

2- إن انتشار الدعاة واتصالهم بالناس يوجد شعبية وتعاطفا لدى الجماهير مع الدعوة والدعاة، مما مما يجعل الطغاة يراجعون حساباتهم مرات.

على أننا يجب ألا نعتمدعلى ذلك، فإن طاغية مصر في الخمسينات والستينات مثلا قد دبر مؤامرة الاغتيال المزعومة، واعتقل الآلاف في ليلة واحدة، وأعدم بعضهم، وألقى بالآخرين في غياهب السجون والمعتقلات، وكانت الدعوة يومئذ ذات رصيد ضخم وشعبية كبيرة عند الناس، ولكن الطاغية عرف كيف يمكن خداع الناس والتلبيس عليهم، وتمت مجزرة تاريخية لم يحرك لها أحد من الناس ساكنا، وكذلك فعل طاغية سوريا في الثمانينيات في الدعاة، فدك مدينة بأكملها، وقتل الآلاف وشرد الآلاف، وشعبه لا يملك إلا الحسرة على الدعاة في أحسن الأحوال.

وعليه فإن الاتصال بالناس (في حدود الخطة الشاملة المرسومة) وخدمتهم يفيد الدعوة كثيرا، إلا أنه لا يمنع عنها المواجهات والأذى والكيد، نعم قد يعيدون حساباتهم ويؤخرون المواجهة قليلا، لكنهم لن يوقفوا الحرب على الإسلام والدعاة.

3- والأسلوب الذي استخدمه الملك الطاغية للضغط على الغلام ليرتد عن دينه، أو التخلص منه، أسلوب خبيث لا يزال يستخدم حتى اليوم.

أن يعدم الدعاة بطريقة كأنه حادث غير مفتعل، وكأنه قدري صرف دون تدخل من البشر أو تعمد، فسقوط الغلام من أعلى الجبل، أو غرقه في البحر، أمر يمكن أن يكون حادثا يتقبله الناس دون لفت نظر، وقد تزيد الحبكة السياسية فيحضر الملك بنفسه أو مندوبه الجنازة، ويتأسف كثيرا على موت هذا الغلام النابه، بل وقد يصرف تعويض أو معونة لأهله ... الخ من الأساليب التي لا يعدم أهل الباطل أن يتفننوا ويحدثوا فيها الجديد والمبتكر.

4- وبأي سلاح واجه الغلام هذا الطاغية، لقد واجهه باللجوء إلى الله وذكره والثقة في جميل نصره ولو بعد حين، ففي كل مرة كان الغلام يدعو بثقة ويقين وتوكل قائلا: اللهم اكفنيهم بما شئت، فيقضي الله على جنود الملك، إذ تنقلب الأسباب ضدهم فيلقون حتفهم، ويعود هو هادئا واثقا بربه.

لقد علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم أدعية تذكر في أوقات الشدائد المختلفة، وقد بوب لأمثال هذه الأمور الإمام النووي في (الأذكار) أبوابا متعددة سماها أبواب الأذكار التي تقال في أوقات الشدة، وعقد لذلك تسعة عشر بابا، فعقد بابا بعنوان: باب دعاء الكرب وعند الأمور المهمة.

فروى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب (لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم).

وأيضا أورد حديثا عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرج الله عنه، كلمة أخي يونس عليه السلام: فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

وقد تعلمنا من النداء الإلهي في القرآن (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)، وتعلمنا من سيرته صلى الله عليه وسلم في الغار قوله (لا تحزن إن الله معنا)، وفي بدر (اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد في الأرض بعد اليوم)، والقرآن يؤكد (إن الله يدافع عن الذين آمنوا).

إن استحضار معية الله وذكره كثيرا، والثقة في جميل عطائه وفضله، والرضا بقضائه وقدره، والرغبة فيما عنده، هي أسلحة المؤمن في هذه المواقف، فإذا استيقن الداعي ذلك فإنه سيواجه الباطل بقوة الله القهار الجبار،

لا بقوته الضعيفة المحدودة التي لا تغني عنه شيئا، وستكون المعركة معركة الباطل مع الله سبحانه صاحب هذه الدعوة، وأنّى للباطل أن يقف أمام من بيده ملكوت السماوات والأرض القوي المتين.

5- ويعود الغلام بعد كل محاولة لقتله ماشيا إلى الملك، فيسأله الملك عن الجنود الذين صاحبوه في مهمة القتل، فيجيب الغلام في كل مرة (كفانيهم الله تعالى).

لماذا يعود الغلام بعد كل محاولة لقتله ماشيا إلى الملك، بعد أن نجاه الله، لماذا لم يهرب، لم يلقي بنفسه إلى الهلاك، فلربما قال قائل: ألا يعتبر ذلك تهورا واندفاعا أو انتحارا، إلى غير ذلك من الأسئلة التي قد تدور في الأذهان.

إن القاعدة أن الداعي إلى الله يخطط ويعمل بدأب حسب خطته، ثم يتفاعل مع أقدار الله التي تواجهه أثناء سيره، غير ناسٍ لواجبه ودعوته وحقيقة رسالته، وهي دعوة الناس جميعا، وإقامة دين الله في الأرض. إن الغلام قد ظهر أمره، ودل عليه الجليس، وأصبح أسيرا يراد قتله بطريقة خاصة، فلما دعا الله في المرة الأولى، فاستجاب له الله، أصبح أمامه خياران: الأول: أن يفر من الملك وبطشه، ويعيش هاربا مطاردا، ولكن ماذا عن الدعوة والرسالة التي يدعو إليها، من يكملها، وهل هربه أفضل أم بقاؤه واستمراره ...، والثاني: أن يستمر في دعوته ويعود إلى الملك، فالله قد استجاب لدعائه مرتين وأهلك الجنود لحكمة ربانية، لعل منها أن يعلم أن دوره لم ينته بعد، وأن الله نجاه ليتم رسالته، وقد اختار الغلام الخيار الثاني، لأنه قد رأى، فيما نظن والله أعلم، في قدر الله له علامة وإشارة للاستمرار في دعوته وأداء رسالته، فعاد إلى الملك ماشيا وحده، غير عابئ به، ولا خائف منه، ليهزمه نفسيا، ويلقي في روعه امتناعه عنه، وهو ما حدث فعلا.

إن سلوك الغلام ليس إلقاء بالنفس إلى التهلكة، وإنما هي جدية وتخطيط وشجاعة إيمانية، من بعد تربية عالية تلقاها من الراهب من قبل، وتهيئة ربانية خاصة له ليكون أهلالهذا الدور الكبير، وهذا واضح من كرامات حادثة الدابة وشفاء المرضى وإجابة الدعاء، إن التهلكة الحقيقية هي الحرص على النجاة من الموت جبنا وتخاذلا عن أداء الواجب، وإيثارا للدنيا على

الآخرة، وإن كان هذا الإيثار الدنيوي قد لبّس بتبريرات متأولة، تبدو وكأنها شرعية، مثلما تأول الناس الآية القرآنية (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة).
أورد ابن كثير عن أسلم أبي عمران قال: كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام رجل يقال له يزيد بن فضالة بن عبيد، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا، فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه، قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية، وقال ابن كثير رواه أبو داود والترمذي والنسائي.
إن المشكلة الحقيقية للحركات الإسلامية هي تقدير المراحل، وكيفية مواجهة أعداء الإسلام لإقامة دولة الإسلام في الأرض تقديرا دقيقا، بلا إفراط (تهور واندفاع يؤديان إلى تأخر الدعوة بسبب العجلة وعدم الرؤية الشاملة أو عدم المرحلية والخطط اللازمة لها، أو عدم الإعداد الصحيح الشامل للقوة)، ولا تفريط (بالإحجام عن الإعداد للمواجهة أو الإحجام عن المواجهة حين تسنح الفرصة أو تكون الدعوة قادرة على اتخاذ بعض الخطوات للأمام نحو التمكين).

إن قصة الغلام وتقلبه بين السرية والعلنية، وبين الاختفاء ومواجهة الباطل، وبين التخطيط مع التفاعل مع الأمور المستجدة، لهو درس للجميع.
إن الأمر نسبي، وإن لكل فهم وأسلوب عمل واجتهاد مكانا في خريطة العمل الإسلامي ما دام يلتزم الشرع، والمهم هو إدراك ذلك، وتوزيع الأدوار بعد إجادة الخطط، واستثمار النتائج بصورة جماعية، فتتكامل جهود العاملين جميعا في اتجاه إعادة الخلافة الإسلامية.
إنه لابد من رؤية واضحة محددة تتفق عليها الحركات الإسلامية المختلفة العاملة في الساحة الإسلامية، مع احترام الاجتهادات الخاصة، والظروف المختلفة المحيطة، ما دامت لا تصادم الشرع أو الخطة العامة، أو على الأقل تكون هذه الرؤية متقاربة ومتكاملة (أي يكمل بعضها بعضا)، فيؤدي الجميع دوره في ضوء ذلك، بلا اتهامات أو غرور أو تأول أو شك، مع

حرص وعمل دائبين من قبل القادة على التقريب بين الصفوف، لا زيادة الهوة، أو محاولات السيطرة والاحتكار في ساحة العمل الإسلامي.

14) قوله (فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارم، فإنك إن فعلت قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه فوضع يده فى صدغه فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام).

وفي رواية الإمام أحمد **(فإن أنت فعلت ما آمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي).**

وفي رواية الترمذي **(فقال الناس لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد، فإنا نؤمن برب هذا الغلام).**

الصعيد : وجه الأرض ترابا كان أو غيره، قال الزجاج: ولا أعلم اختلافا بين أهل اللغة في ذلك، ويقال: الصعيد في كلام العرب يطلق على وجوه: التراب الذي على وجه الأرض، وعلى وجه الأرض، وعلى الطريق، (المصباح المنير).

صدغه : الصدغ ما بين لحظ العين إلى أصل الأذن (المصباح المنير).

1- إن الغلام الصغير الضعيف، في الظاهر، يأمر الملك الجبار المتأله صاحب القوة والسلطان، كيف يكون ذلك؟، وأمام الحاشية والجنود الذين إن أمر أحدهم أن يميل بسيفه على رأس الغلام لفعل بلا تردد.

إن هذا الموقف يتصل بثلاثة جوانب : أولها وأهمها تقدير الله سبحانه وتعالى وتسييره للأمور كيف شاء، ذلك أن الله قد جعل أمر العجز عن التخلص من الغلام بالطرق العادية، وضرورة القضاء عليه بأي وسيلة، جعل

ذلك يتسلط على الملك حتى لم يعد له قدرة على تحليل الأحداث، وتقدير الأمور، فلو كان الأمر عاديا لتخلص الملك من الغلام بالقتل العادي، وماذا يمنعه منه، ولفكر الملك في الطريقة التي طرحها الغلام، وما سينبني عليها من احتمالات لإيمان الناس أو على الأقل التعاطف مع الغلام، وظهور الملك في صورة وحشية سافرة في هذا الموقف، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، بل استسلم الملك تماما للغلام، وصدق الله (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار)، (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)، (وما يمكرون إلا بأنفسهم)، (سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب).
نعم أن الله سبحانه وتعالى إذا شاء أمرا جعل كيد الباطل في نحره، وتدميره في تدبيره، أو مد له طغيانه ليجعله حطب جهنم، فإن الدعوة هي دعوته سبحانه، هو صاحبها وهو الذي يدبر لها (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون). ما علينا إلا أن نؤدي واجبنا ثم نكل الباقي إلى الله سبحانه وتعالى، إن شاء أهلك الباطل بكن، وإن شاء مدّ له لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى.

أما الجانب الثاني: فهو ضعف الباطل واستسلامه، فإن الملك رغم قوته المادية وسلطانه على الناس، يسمع غلاما يقول له: حتى تفعل ما آمرك به، وبدلا من أن ينتفض ثائرا فيقتله أو يضربه، أو حتى يوبخه، إذا به يسأله في وداعة: ما هو، نعم إلى هذا الحد انهزم الملك نفسيا وداخليا، ثم تحول إلى هذه الصورة الضعيفة المستسلمة، لقد رأى رجلان يشقان بالمنشار وما يفتنهما ذلك عن دينهما، ثم غلاما لم تنجح معه محاولتان للقتل المدبر، بل قتل جنود الملك في المرتين، أي دين هذا، وأي إيمان هذا، وأنى لي بهذا الغلام، وكيف أقتله، إني لأدفع أي ثمن لمعرفة قتل الغلام، فيأتيه الحل من الغلام نفسه، فيستسلم الملك تماما لما يقول الغلام،بل وينفذه بالحرف الواحد جهرا أمام الناس مجتمعين عند رمي السهم، وصدق الله (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)، (إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون).

والجانب الثالث: هو الغلام الداعي إلى الله، هذا الغلام المبارك الذي اجتمعت فيه مقومات ثلاثة: **أولها**: الذكاء، والذي يتمثل في تقديره لانهزام الملك نفسيا، ثم التحدث معه بهذا الشكل، وطرح هذا الحل الذي يضمن له، من ناحية التقدير البشري، إيمان الناس أو أغلبهم بدين الله.
ثانيها: استشعار معية الله وقوة الحق الذي يحمله، والذي جعله يتحمل أن يعذب ثم يشاهد شق كل من الراهب والجليس نصفين، ثم محاولة إلقائه من أعلى الجبل، ثم محاولة إغراقه، فيعود باختياره، ليقف بين يديد هذا الجبار الطاغية وحاشيته، ثم يتكلم بهذه القوة والثقة أمام الطاغية، وهو الغلام الحدث الصغير السن، إن هذه القوة التي ظهرت في سلوك الغلام هي قوة الحق الذي يحمله، وقوة الإيمان بالله وحده.

ثالثها: هو فهم الدعوة التي يحملها، فهو داعية إلى الله، يحمل أعظم رسالة في الوجود، ووظيفته أن يسخر حياته وماله لتحقيق أكبر تقدم لهذه الدعوة، وهل من تقدم أفضل من إيمان الناس بها ودخولهم في دين الله أفواجا، قال صلى الله عليه وسلم (فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) البخاري ومسلم. فخطط الغلام لهذا الموقف الذي يعلن فيه الملك على الملأ هذه العقيدة الجديدة التي يحملها الغلام. إن الحياة تهون أمام تحقيق مثل هذا الهدف العظيم، ذلك أن عقد البيعة مع الله لم يدع لحياة الإنسان قيمة أمام نصرة دين الله عز وجل (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)، ومثل ما سأل الأنصار النبي صلى الله عليه وسلم يوم بيعة العقبة الثانية، بعد أن اشترط لربه ولنفسه، فما لنا إن فعلنا ذلك، قال: لكم الجنة، قالوا فلك ذلك. ومثل ما كان النبي يقول لعمار وأبيه ياسر وأمه سمية، وهم يعذبون في مكة (صبرا آل ياسر، إن موعدكم الجنة)، وقال ابن كثير، وقد روى البيهقي عن الحاكم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بعمار وأهله وهم يعذبون فقال (أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة) (البداية والنهاية).
إن الداعي إلى الله جندي من جنود الدعوة يجود بنفسه وماله لدينه ودعوته، حتى تحيا في نفوس الآخرين، فيحملونها ويجاهدون في سبيلها، وهو حين يبذل حياته يبذلها دون تهور واستعجال، وإنما يبذلها بشجاعة وتضحية

لتحقيق مصالح الدعوة وأهدافها، وله جزاء ذلك رضوان الله، وجنة عرضها السماوات والأرض خالدا فيها.

2- ومما يلفت النظر في طريقة القتل التي أمر بها الغلام الملك الأسلوب التفصيلي الذي ذكره الغلام، بأن يأخذ سهما من كنانته ويضعه في كبد القوس، وهي أمور لا علاقة لها بالقضية التي يريدها الغلام وهي جملة: بسم الله رب الغلام، إلا أننا نرى أن ذلك كان نوعا من السيطرة الكاملة على الموقف، والضغط النفسي الكبير على الملك، وعدم ترك أي جزئية ولو صغيرة لاجتهاده في تنفيذها، وقد التزم الملك التزاما كاملا في التنفيذ، مما يبين مدى خضوعه، وسيطرة أمر التخلص من الغلام عليه.

3- ولم يحي الغلام حتى يسمع قول الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، لم يعش حتى يرى نتيجة عمله، وإنما حسبه أنه اجتهد في تحقيق رسالته،و بذل روحه فداء لدينه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إن جهاد الدعاة الصادق، وثباتهم على عقيدتهم ومبدئهم، وإخلاصهم لما يؤمنون به، وقدوتهم للناس في الالتزام بدينهم والدعوة إليه، وصدعهم بالحق في وجه الباطل والطغيان، هي العناصر الأساسية لنجاح دعوتهم وانتشارها بين الناس، كما حدث للناس في هذا الموقف، وهم يشاهدون الغلام يقف ثابتا في مواجهة الملك، بينما يقر الملك بعقيدة الغلام ويعترف بها ليقتله.

4- ونلاحظ في قول الناس، كما في رواية الترمذي (لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد، فإنا نؤمن برب هذا الغلام)، أن الناس يتأثرون بواقع الدعاة وأفعالهم وسلوكياتهم.

فقد شاهدوا من قبل كرامات الغلام، واهتمامه بأحوالهم مشاكلهم دون طمع في دنيا أو مال أو منفعة شخصية، فلما علموا أن له دينا آخر غير دين الملك آمنوا بدين الغلام، لثقتهم فيه وفي صدقه. فعلى الدعاة، وإن لم تكن لهم كرامات وخوارق كالغلام، أن يخالطوا الناس ويدعونهم بالحسنى، ويعينوهم، وأن يكونوا لهم قدوة ونموذجا للإسلام في كل جانب من جوانب الحياة، حتى إذا جاء الوقت الذي قدره الله، انحاز الناس للحق وأهله الذين عرفوهم، واستوثقوا من صدقهم والتزامهم.

على أننا نعود فنكرر أنه لا ينبغي الاعتماد بشكل كبير على عموم الناس في التغيير والجهاد، وإنما في المؤازرة، والمعونة الآمنة للدعاة المجاهدين.

15) قوله (فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق).

وفي الترمذي **(فقيل للملك أجزعت أن خالفك ثلاثة، فهذا العالم كله قد خالفوك).**

وفي أحمد **(فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه).**

وفي الكشاف أن الصبي قال لأمه **(قعي ولا تقاعسي)، (ما هي إلا غميضة فصبرت)**، وفي رواية أنه قال **(يا أماه قعي ولا تقاعسي، اصبري فإنك على الحق، اثبتي على ما أنت فيه، فإنما هي غميضة، امضي ولا تجزعي).**

الأخدود : الشق المستطيل في الأرض (مختار الصحاح).
أفواه : أبواب، السكك : الطرق (دليل الفالحين).
خدت : شقت، أضرم : أشعل (مختار الصحاح).
أقحموه : ارموه واطرحوه كرها،
ومعها صبي لها : أي في غير أوان الكلام كما أشار إليه المصنف،
فتقاعست : توقفت ولزمت مكانها خوفا (دليل الفالحين).
قعي : فعل أمر من وقع أي سقط،
غميضة : تصغير غمضة وهي: انغضاض الطرف (مختار الصحاح).

1- وهكذا يكون موقف بطانة السوء دائما: تخويف السلطان واستعداؤه على المؤمنين (أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس)، (أجزعت أن خالفك ثلاثة، فهذا العالم كله قد خالفوك). إن الحاشية

وبطانة السوء تعمل دائما لمصالحها الشخصية لا لمصلحة الشعب أو البلاد أو حتى الملك نفسه، فهي تحرص أن تكون طبقة عازلة بين الملك وبين الناس، وأن توقع بينهما لتحتفظ بموقعها ومصالحها النفعية، وتسيطر سيطرة كاملة على مقدرات الأمور.
وماذا عليهم لو آمن الملك مع الناس، إنهم سيفقدون كل شيء، إلا أن يؤمنوا، لأنه سيضيع سلطانهم، ويتغير النظام إلى النظام الإسلامي الإيماني، الذي يرفض الطغيان والظلم الإذلال والفساد، ولهذا كان لابد من استثارة الملك واستعدائه ليقضي على المؤمنين، حتى يزول التهديد وتعود الأمور إلى ما كانت عليه من حكم السحر والقهر وعبودية الناس للملك.
وون نظرة سريعة إلى التاريخ الحديث ترينا صورة أوضح لهذا الأمر، فالإعلام والوزراء والمنافقون والكتاب يستعدون الحاكم على الحركة الإسلامية، بل ويكتب صراحة في الصحف أنه لا حل لهؤلاء المتطرفين إلا الإلقاء في السجون أو النفي أو القتل، ولو لقادتهم على الأقل، هكذا صراحة في غير خجل أو حياء أو حتى تورية، نعم أحكام بالسجن والقتل والنفي دون تهمة أو محاكمة.
وما طغيان حكام اليوم إلا نتيجة لخور الشعوب وضعفها وقلة حيلتها، وانعدام وعيها، وعدم إدراكها لحقائق الأمور والمواقف. ‘ن على الدعاة واجبا في كشف حقيقة الأنظمة الظالمة الطاغية التي لا تبحث إلا عن مصالحها ومنافعها الشخصية، ولا تدين لله رب العالمين، وتوعية الشعوب وربطها بالإسلام الذي لا نجاة إلا فيه في الدنيا والآخرة، وتهيئتها للحكم بالإسلام شرعة ومنهاجا.

2- وحين رأى الملك نتيجة قتل الغلام من إيمان الناس بالله وحده، ثم استثارته الحاشية، كيف عالج الموقف؟ إنه بكل يسر أمر بحفر الأخاديد في الطرقات، وإضرام النيران فيها، وتهديد المؤمنين أن من لم يرجع عن دينه سيلقى في النار، ثم تنفيذ هذا التهديد عمليا حال الرفض.
والتزم الجنود بالأوامر ونفذوها بدقة، فهي أوامر ولي الأمر والذي تجب طاعته، بل هي أوامر ربهم على زعمهم، فكان إلقاء المؤمنين الصابرين في النار ليحترقوا فيها جزاء كفرهم بالملك، وعدم طاعتهم له، وإصرارهم على الإيمان بالله والتوكل عليه.

وجلس أصحاب هذه الجبلات المجرمة على النار، يشهدون كيف يتعذب المؤمنون ويتألمون، جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار، والأناس الكرام يتحولون وقودا وترابا، وكلما ألقي فتى او فتاة، صبية أو عجوز، طفل أو شيخ، من المؤمنين الخيرين الكرام في النار، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة، وعربد السعار المجنون بالدماء والأشلاء، وفي المقابل ارتفع الإيمان في قلوب المؤمنين على الفتنة، وانتصرت فيها العقيدة على الحياة، فلم ترضخ لتهديد الجبارين الطغاة، ولم تفتن عن دينها وهي تحرق بالنار حتى تموت. لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة، فلم يستذلها حب البقاء وهي تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة، وانطلقت من قيود الأرض وجواذبها جميعا، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها (معالم في الطريق).

3- ويبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم في وسط هذا الهول صورة إنسانية وإيمانية رفيعة، تعطينا نموذجا لما حدث في ذلك الموقف: وصف الناس في رواية الإمام أحمد (فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون)، وقصة المرأة مع طفلها الرضيع.

فالناس استعلوا بإيمانهم وأبوا الكفر والرجوع إليه، فاندفعوا هاربين من الكفر واتجهوا إلى النيران التي هي أخف وطأة من الكفر، بل فيها الفوز العظيم، وتدافعوا إليها، وهي صورة تحتاج إلى تأمل عميق وتصور للموقف لإدراك عظمة هذا الدين حين يستولي على القلوب، فتقبل على الله متجردة مستعلية على الدنيا ومتاعها، بل مستعلية على الحياة نفسها إن لم تكن في سبيل الله.

والصورة الثانية للمرأة المؤمنة التي أقبلت على النار ومعها طفلها الرضيع، فلما رأتها أشفقت وترددت وخافت أن تلقي بنفسها وابنها في النار، فثبتها الله عز وجل بإنطاق هذا الصبي الصغير الرضيع (وهي من الكرامات والخوارق)، فقال هذه الكلمات الخالدة بخلود حديث النبي صلى الله عليه وسلم (اصبري فإنك على الحق)، (قعي ولا تقاعسي)، (اثبتي على ما أنت فيه)، (ما هي إلا غميضة)، (امضي ولا تجزعي). هذه الكلمات التي أنطق الله بها الرضيع تعلم الدعاة أن الأصل في طريق الدعوة هو الثبات والصبر والتضحية حتى الموت في سبيل الله، وأن الأمر مهما بدا شديدا عاصفا مؤلما فإنه إلى نهاية قريبة، ينال بعدها المؤمن المجاهد أجره كاملا من رب

السماوات والأرض، إن كلمات الرضيع كأنها رسالة من الله إلينا في كل زمان ومكان أن هذا هو الإسلام، وهذه هي الدعوة بآلامها وأشواكها، ولكن العاقبة خير وأبقى لأصحاب اليقين الذين يحبون الله ورسوله، ويرجون لقاء الله. إن هذه المرأة المؤمنة التي علم الله منها صدق إيمانها، ثبتها الله سبحانه وتعالى في الموقف الرهيب، وهذه سنة الله في عباده المؤمنين (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة).

4- واختيار المراة مع طفلها الرضيع لعل فيه إشارة إلى دور النساء في طريق الدعوة، فإن الدعوة إلى الله ليست حكرا على الرجال، وإنما عليهن واجب الدعوة إلى الله وتحمل أعبائها بما يناسب وظيفة المرأة وطاقتها، بل إن النساء في صدر الإسلام شاركن في الجهاد كالرجال في بعض الأوقات، وشاركن في التمريض والسقاية، وشاركن في سرية الدعوة وتحمل أعبائها وفي الهجرة ... الخ.

ومشكلة اليوم هي في قصور أداء الأخوات لواجب الدعوة إلى الله المفروض عليهن، مع الالتزام بالآداب الشرعية وعدم تجاوزها، فبعض العاملين للإسلام يصرح بأن وظيفة المرأة هي بيتها وأولادها فقط، وهي بالتأكيد وظيفة أساسية من وظائف المرأة، ويبالغ حتى في دعوة المرأة للنساء وتربيتهن، وتعليمهن، أو الكتابة، أو التدريس للأطفال والفتيات، أو التطبيب، أو أي وظائف يحتاجها الإسلام يمكن أن تؤديها المرأة دون الخروج على الآداب الشرعية، وتستمر المبالغة عند هؤلاء حتى تصل إلى درجة التنطع الغريب الذي لا أصل له في قرآن أو سنة أو سيرة، بل على العكس يصادم نصوصا ووقائع، فينتج لنا نوع من الأخوات اللاتي لا فقه لهن ولا وعي ولا فهم صحيح ولا دور حقيقي لنصرة هذا الدين، وفي النهاية يكون الفشل حتى في الوظيفة المذكورة وهي البيت والأولاد، لأن الفهم ضعيف والعقلية محدودة، والتنطع زائد، فتكون النتيجة وبالا على الأسر المسلمة، ثم بالتبعية على الحركة الإسلامية.

والنموذج الثاني المرفوض هو الترخص، وتجاوز الحدود الشرعية، ودعوة المرأة المسلمة إلى الاختلاط المستهتر، والانطلاق في كل الميادين بلا ضابط، تأثرا بالنساء في الغرب وقدراتهن العالية في المجالات المختلفة، بل وصل بالبعض أن قال بجواز دعوة الرجال للنساء والنساء للرجال دعوة

فردية، ولا يخفى على أحد مدى المخالفات الشرعية في هذا التصور غير المنضبط شرعا.
إن المرأة ليست كائنا غريبا نزل من الفضاء، كما أنها ليست سلعة يتلهى بها في المجتمعات، إن المرأة المسلمة يجب أن تكون على درجة عالية من الثقافة والوعي والحركة، في الحدود الشرعية المقبولة، وأن تشارك في بناء الدولة الإسلامية الصحيحة، إذ هي عنصر أساسي في هذا البناء، يجب أن تنافس الأوروبية في الوعي وتنمية القدرات والتخصصات، المناسبة لطبيعتها، ولاحتياج الأمة، وتتميز بإيمانها وأخلاقها ودينها، إن الدولة الإسلامية ستحتاج إلى الكاتبة والأديبة والطبيبة والمدرسة والباحثة والداعية، دون أن تقصر في دورها كأم وزوجة، تؤدي أدوارها بعلم وفقه ونية وتضحية، مع التزام الضوابط الشرعية الصحيحة بلا إفراط ولا تفريط، وفي هذا الكفاية.
5- والسؤال الهام والخطير في نهاية هذه القصة : أفهكذا ينتهي الأمر؟، يعذب المؤمنون، ويحرقون بالنار، ومن قبل ينشرون بالمناشير؟، أيعيش الطغاة والطواغيت هانئين، ويموت المخلصون المؤمنون؟، أتنتهي الدعوة إلى الله إلى هذه النهاية؟، وللإجابة على ذلك يجب مراجعة عدة حقائق حتى تتبين لنا القضية ونتمكن من الحكم عليها :

ا- (إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة ... وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة ... إن الناس جميعا يموتون وتختلف الأسباب ... ولكن الناس جميعا لا ينتصرون هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع ... لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر) المعالم.
ب- (إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها ... وشهود المعركة ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال، إن الملأ الأعلى يشارك في أحداث الأرض ويشهدها ويشهد عليها، ويزنها بميزان غير ميزان الأرض في جيل من أجيالها ... وبعد ذلك كله هناك الآخرة وهي المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض ولا ينفصل عنه ... فالمعركة إذن لم تنته، وخاتمتها الحقيقية لم تجيء بعد، والحكم عليها بالجزء الصغير الذي عرض منها على الأرض حكم غير صحيح، لأنه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد ...

وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الأعلى، واتصلت الدنيا بالآخرة، ولم تعد الأرض وحدها هي مجال المعركة بين الخير والشر، والحق والباطل، والإيمان والطغيان، ولم تعد الحياة الدنيا هي خاتمة المطاف، ولا موعد الفصل في الصراع) المعالم.

ج- (لقد شهد تاريخ الدعوة إلى الله نماذج منوعة من نهايات في الأرض مختلفة للدعوات ... شهد مصارع قوم نوح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم هود، ونجاة الفئة المؤمنة قليلة العدد ... وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده، ونجاة موسى وقومه مع التمكين للقوم في الأرض، وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة ... وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وانتصار المؤمنين انتصارا كاملا، مع انتصار العقيدة في نفوسهم انتصارا عجيبا، وتم للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمنا على الحياة في صورة لم تعرفها البشرية قط من قبل ولا من بعد ... وشهد، كما رأينا، نموذج أصحاب الأخدود ... وشهد نماذج أخرى أقل ظهورا في سجل التاريخ الإيماني في القديم والحديث ... ولم يكن بد من النموذج الذي لا ينجوا فيه المؤمنون، ولا يؤخذ فيه الكافرون، ذلك ليستقر في حس المؤمنين أصحاب دعوة الله أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله، وأن ليس لهم من الأمر شيء، إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله.

إن عليهم أن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا، وواجبهم أن يختاروا الله وأن يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة، وأن يصدقوا الله في العمل والنية ... إنهم أجراء عند الله، أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم، وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير ... وهم يقبضون الدفعة الأولى طمأنينة في القلب ورفعة في الشعور وجمالا في التصور ... وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناء في الملأ الأعلى وذكرا وكرامة ... ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى في الآخرة حسابا يسيرا، ونعيما كبيرا، ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعا، رضوان الله ...) المعالم.

فصل : ولكل وجهة هو مولّيها

في نهاية هذا الإيضاح لما يتضمنه الحديث من دروس وفوائد دعوية وغيرها، يجدر بنا أن نشير إلى دور كل شخصية من شخصيات الحديث وأهميته :

أولا : الراهب :

1- وهو المؤسس للدعوة والحركة، المؤمن البصير بالعقيدة الحقة.
2- وهو أيضا المربي الذي ينتقي الأفراد ويبذل الجهد في تربيتهم، وتفهيمهم الباطل الذي عليه الملك والساحر، والحق الذي يجب أن يؤمنوا به، ويعمل له كل ذي عقل وبصيرة.
3- كما أنه المخطط الذي يحدد المراحل المختلفة، وضوابط الحركة من سر وعلن.
4- ثم هو الثابت على دينه الذي شق بالمنشار نصفين فلم يصوفه ذلك عن دينه شيئا.

ثانيا : الغلام :

1- الذي تعلم وتربى على يد أستاذه الداعية الراهب، فنضج ورزقه الله صفاء وولاية وكرامة.
2- فأذن له الراهب بالدعوة جهارا وعلنا.
3- ثم كان صدعه بالحق أمام الملك وحاشيته.
4- وكانت تضحيته لنشر الدعوة دليلا على عمق إيمانه وفهمه لرسالته، فآثر أن يموت ويدخل الناس في دين الله أفواجا.

ثالثا : الجليس :

1- الذي كان جليسا للملك، يعيش مع كبار القوم وفتنة الدنيا، ثم أذن الله له أن يؤمن فآمن، متخليا عن الدنيا ومباهجها وفتنتها.
2- ثم صدع بالحق أمام الملك وحاشيته، بل كان اول من صدع بالحق أمام هؤلاء.
3- ثم كان الثبات على دينه وهو يشق بالمنشار نصفين.

رابعا : أصحاب الأخدود :

1- المؤمنون الذين أدركوا الحق فآمنوا بالله وحده.

2- وصدعوا بالحق أمام الطغاة، فلم يهنوا ولم يضعفوا، حتى المرأة التي أشفقت على صبيها وهي تحمله من لهب النار.

3- ثم كان الثبات على الدين ولو احترقت الأجساد، واشتد الألم من الحريق، لأنه في ذات الله تعالى.

بعد هذا العرض الملخص لشخصيات الحديث وأدوارهم، يأتي سؤال يطرح نفسه : أي دور من هذه الأدوار أهم؟ وأيها أعلى منزلة وأرفع درجة؟.

قد يقول قائل: الراهب المؤسس، ويقول آخر: بل الغلام صاحب الكرامة، ويقول ثالث: بل الجليس الصادع بالحق، ويقول رابع: بل المؤمنون الذين قذفوا بأنفسهم في النار إيثارا لله على الدنيا.

وللإمام مالك كلام موجز لكنه شاف لهذه المسألة، فقد كتب بعض العباد إلى مالك يحضه على الانفراد وترك مجالسة الناس، فرد عليه متخشعا في تواضع يليق بالتعليم وقال : إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصيام، وآخر فتح له في الجهاد، ونشر العلم من أفضل الأعمال، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنت فيه بأفضل مما أنا فيه، فأرجو أن يكون كلانا على خير وبر (إمام دار الهجرة للجندي).

وللإمام العز بن عبد السلام بيان لهذا الأمر إذ يقول : الفضائل بالمعارف والأحوال وما يتبعها من الأقوال والأعمال، ولقد نال الأنبياء من ذلك أفضل منال، فورث عنهم العارفون بعض المعارف والأحوال، وورث عنهم العابدون التقرب بالأقوال والأعمال، وورث عنهم الفقهاء التقرب بمعرفة الأحكام المتعلقة بالجوارح والأبدان، وورث عنهم الزهاد الترك والإقلال (قواعد الأحكام).

أي أنه يقرر أن كل فئة من الناس ترث من الأنبياء جزءا من الخير والفضل الذي أنعم الله به عليهم، فهو فضل موزع أو رزق مقسم، وهو معنى يكاد يماثل قول الإمام مالك.

ا- إن كثيرا من العاملين للإسلام تحدث بينهم كثير من الخلافات بسبب عدم فهم هذا الأمر، فالذين حظى الجانب العلمي باهتمام خاص منهم يتعالون على الآخرين، والذين حظى الجانب الروحي منهم بمزيد اهتمام يظنون أنفسهم الأفضل وأن هذا هو الطريق، والذين يفهمون الإسلام بشموله فهما وتطبيقا

قدر الاستطاعة يظنون أن لا خير في غيرهم، وهكذا، وغدراك الحق في هذه القضية كفيل بأن يجعل الجميع يتعاون ويتناصح لخير هذه الأمة، إذ لا فائدة من التشرذم والتفرق. إن الدنيا كلها الآن تحارب الإسلام بوجه قبيح وسفور بيّن وطغيان واضح، بينما العاملون للإسلام قد انشغل بعضهم ببعض بدلا من أن يتوحدوا على ما اتفقوا عليه من حق وهو كثير، وتأمل جملة الإمام مالك : فأرجو أن يكون كلانا على خير وبر.

ب- وداخل الجماعة الواحدة قد يفاضل الإنسان بين عمل وعمل، أو مكان ومكان آخر، والحق أن العبرة في العمل ليست في المكان، أو نوع العمل والنشاط الذي يقوم به المرء، وإنما في الإخلاص والتجرد والثبات، مع حسن الأداء، فلم يكن الصحابة كلهم خلفاء مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ولم يكونوا جميعا علماء مثل العبادلة الثلاثة، ولم يكونوا جميعا قادة جهاد مثل خالد بن الوليد والمقداد وأسامة بن زيد، بل إن الأسماء البارزة في هذه المجالات محدودة معدودة من آلاف كثيرة من الصحابة.
إن التقدم والتأخر داخل الجماعة ينبغي أن يكون إفرازا طبيعيا للممارسة الدعوية، ولقدرة الشخص، أما التطلع إلى أماكن بعينها أو أدوار بذاتها، أو أن يفرض أفراد على الجماعة، وفي مواقع معينة، لأمر غير المؤهلات الحقيقية، فإن ذلك يعني بداية سريان الفتنة داخل الصف.

ج- إن فهم هذه القاعدة التي أسستها الآية (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرا)، ووضحها قول الإمام مالك، وبيان شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، يعين كل فرد على بذل طاقته، وتنمية ما لديه من إمكانات، دون نظر إلى وضع معين أو مكان خاص يريد أن يصل إليه حتما، بل ينبغي أن يعمل ويبذل، ولا يستشرف، بل يفضل الخفاء على الظهور، ويتضح ذلك بأن نضرب مثالين أحدهما من الصحابة والآخر من التابعين: أما الأول فهو أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، الذي أثنى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر) (الترمذي بسند حسن وابن ماجه وابن الجوزي وأحمد)، ومع ذلك منعه الإمارة، لضعفه عنها مع فضله، فاستجاب وانصرف تماما عن هذا الأمر حتى قبضه الله إليه. وأما الثاني فهو أويس القرني الذي ندب النبي صلى الله

عليه وسلمأن يطلب منه من لقيه أن يستغفر له، فلم يلقه أبو بكر، ولقيه عمر في موسم الحج فسأله أن يستغفر له، ففعل، ثم أراد عمر أن يرسل معه إلى الوالي، فأبى وقال: يا أمير المؤمنين دعني أسير في غبراء الناس لا يؤبه لي (صفة الصفوة).

د- ومن أمثلة الأدوار الخاصة في تاريخ الدعوة: النجاشي في الحبشة، ونعيم بن مسعود في الخندق، والعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، ومؤمن آل فرعون، وغيرهم كثير، والاطلاع على ما قاموا به بملابساته يوضح ما نعنيه من ذلك.
ه- إن تمني الشهادة أمر مطلوب شرعا، إلا أن لها موضعا تكون فيه، والله سبحانه وتعالى هو الذي يتخذ الشهداء (ويتخذ منكم شهداء)، وإن من الشهداء رجال عملوا لهذا الدين وجاهدوا ثم ماتوا على فرشهم، وقد ورد في الحديث (من سأل الله الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه) رواه مسلم.
وقد عصم الله نبيه صلى الله عليه وسلم فلم يتمكن أحد من قتله لا في ميدان القتال ولا في غيره، وهو إمام المجاهدين، وكذلك لم يستشهد كثير من الأنبياء، وخير رجال أمة المسلمين أبو بكر وعمر كذلك لم يقتلا في ميدان القتال والجهاد، مما يحتاج إلى تأمل وتدبر.

إن التصدي للباطل في غير استعداد وقوة تكون عاقبته زيادة التمكين للباطل، وتوهين وإضعاف أهل الحق، وإن المسلم دمه غال لا يبذل إلا في موضعه، ووقته المناسب، الذي يظن فيه تقديم شيء لدين الله، دون تسويف وتأجيل وخور وخوف، وإن الإعداد للجهاد والصبر عليه، واستصحاب النية لله، لأمور لا ينبغي أن يغفل عنها المؤمن (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق) مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي.
ويحضرني قول لأحد فضلاء الدعاة سمعته منه ولم يفارقني إلى اليوم، قال (من أراد أن يموت في سبيل الله فليمت من الآن)، أي فليعد نفسه من الآن في عداد الشهداء، فلا يتطلع إلى دنيا، ولا تشغله وظيفه ولا منصب، ولا تفتنه زوجة أو مال، ولا يحبسه مال ولا عيال، وكأنه في الملأ الأعلى بقلبه،

وجسده على الأرض يعمل ويدأب في طاعة الله ورضاه راجيا الشهادة والفردوس الأعلى.
وقد قال بعضهم: كان الواحد منا يصف نفسه بأنه (شهيد في أجازة)، أي يعمل لدينه ودعوته راغبا في الشهادة، سائلا الله أن يمن عليه بها، منتظرا تلك اللحظة المباركة، فإن لم يمت شهيدا فيرجو أن ينال أجر الشهداء، وأن ينزل منازل الشهداء.
و- نعم (ولكل وجهة هو موليها) تعتبر قاعدة هامة لفهم الأدوار في العمل الإسلامي، و (إنما الأعمال بالنيات) تعتبر قاعدة في الحصول على الأجر من الله وتحقيق المراد شرعا، و (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) تعتبر قاعدة التعامل بين المسلمين دون غل أو حقد أو حسد.
وعلى جميع العاملين للإسلام أن يدركوا أن مجال العمل الإسلامي يسع كل الطاقات والقدرات والرغبات والمواهب، وأن أبواب الخير في الإسلام، مع اختلاف مراتبها وتفاضلها، كثيرة ومتعددة وتؤدي، مع الإخلاص في القصد، إلى رضا الله والأجر العظيم.
فعلينا أن نعمل بجد، كل في المجال الذي يسره الله له، على أن يجمع بيننا (إنما المؤمنون أخوة)، (وإن هذه أمتكم أمة واحدة)، (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا)، (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين).

أسأل الله أن يجمع بين قلوب المؤمنين، وأن يفقههم في دينهم، وأن يفتح عليهم فتحا مبينا تقر به أعينهم، وتسكن به قلوبهم الملذوعة المحترقة على حال الأمة، وهوانها الحالي.

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، ربنا آتنا من لدنك وهيء لنا من أمرنا رشدا،
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،
وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

إنه لا بد أن تكون هناك إسهامات في التنقيب
عن كنوز فقه الدعوة في النصوص والسيرة
وأقوال السلف، حتى نحظى بأصالة فهم وبركة
نطق خرج بعد معاناة طويلة، وحتى يجمع
الشباب بين الأصول الشرعية، والواقعية
العصرية، فلا ينفصل عن الأصول، ولا يعيش
غريبا عن واقعه واحتياجاته ووظيفته في علاج
هذا الواقع ..